

2 me Année, No. 59.

Lundi-20-8-1934

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

صراع بين ثقافتين

فتنة الثقافة الأجنبية

ظاهرة فى تفكيرنا وأدبنا تحمل على جد الأسف ، هى أن الشئون والنواحى القومية ماتزال مهملة منسية ، فى حين أن الشئون والنواحى الأجنبية تلقى بيننا دائماً كثيراً من العناية والاهتمام

وتلك ظاهرة قديمة فى تاريخنا الحديث ، ترجع الى سبب معروف ، هو سيادة النزعة الأجنبية فى برامج التعليم التى تفرض على مصر منذ نصف قرن ، والتى يلحظ فيها دائماً إقصاء عناصر الثقافة القومية أو إضعافها حتى لا تكون عاملاً فى تغذية الشعور القومى وإذكائه ؛ وإذكاء الشعور القومى شر ما يخشى المستعمر من أمة مغلوبة تطمح الى استرداد حرياتها

وقد رجونا خيراً يوم قيل لنا إن برامج التعليم سوف تحرر من أصفادها القديمة ويعنى فيها بكل مايرفع شأن الثقافة القومية ، وتتخذ فيها لغة البلاد وتاريخها ومسائلها وشئونها مكانها اللائق ؛ ولكن سرعان ما خاب هذا الأمل ، وإن كانت اللغة العربية قد استردت فى العهد الأخير شيئاً من حقها المسلوب ؛ وما زالت

النزعة الأجنبية تبث اليوم فى برامجنا وثقافتنا كما كانت تبث بالأمس ، ولم تتغير الغاية وإن تغيرت الوسائل

وما زالت هذه النزعة الأجنبية تتجلى فى تفكيرنا وأدبنا بشكل واضح . فنى بضعة الأعوام الأخيرة مثلاً صدرت بالعربية كتب عن الدكتور مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والسنيور موسوليني ، والغازى مصطفى كمال ، وجيته شاعر ألمانيا الأكبر ، وأخيراً عن الهر أدولف هتلر ؛ وصدر بالعربية أيضاً كتابان عن باريس وكتاب عن لندن . فهذه كلها كتب عربية أخرجتها أقلام مصرية فى موضوعات أجنبية فى بضعة أعوام فقط . هذا الى ما تنشره صحفنا ومجلاتنا من فصول ومباحث لا نهاية لها عن الموضوعات والشخصيات الأجنبية ، وما يغرق فيه بعض أدبائنا الناشئين من الكتابة عن الكتاب الغربيين والأدب الغربى مما يسمونه بميسم الطرافة والتجديد

وهذا حسن فى ذاته لو أن مثل هذه العناية بالموضوعات الأجنبية يبذل لتناول الموضوعات والمسائل القومية . ولكن ماذا أخرجنا من الكتب والرسائل عن عظمائنا ؟ وماذا نشرت أو تنشر عنهم صحفنا ومجلاتنا ؟ لقد أصدرنا كتباً عن مازاريك وموسوليني ومصطفى كمال وجيته وهتلر ، ولكن لم نصدر فى تلك الفترة كتاباً واحداً عن أحد من عظمائنا الذين يحفل بهم تاريخنا الحديث مثل عرابى ، والبارودى ، ومحمد عبده ، وعلى مبارك ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وسعد زغلول ، وحافظ ، وشوقى ، وغيرهم وغيرهم ممن يغمطون الى اليوم حقهم من الناحية الأدبية ، ولا يفكر أحد من كتابنا فى أن يعنى بدراستهم وترجمتهم بما يجب من إفاضة وتحقيق

نعم إن الأدب لا وطن له ، والتفكير تراث الانسانية كلها ، والقلم حر له أن يجول أنى شاء ؛ ولكن هذه الفتنة الغربية التى تأخذ علينا سبل التفكير فى تراثنا القومى جديرة بكثير من التأمل والاهتمام ؛ ففى الأمم الحرة التى يزدهر تفكيرها وأدبها فى ظل الاستقلال والحرية ، تأخذ جميع ألوان التفكير والأدب ، قومية كانت أو خارجية مكانها من النهضة الأدبية العامة . ومع ذلك فان التراث القومى يحتفظ دائماً بالمقام الأول ، ويعتبر دائماً أقوى وأنفس غذاء للشعور القومى . فاذا كانت هذه الأمم التى يحتفظ فيها الشعور القومى بكل قوته واضطرامه تقدر دائماً فعل التراث والذكريات القومية فى تغذية هذا الشعور وتكوينه ، فأولى بالأمم المغلوبة التى يعمل فيها الغالب الأجنبى على محاربة الشعور القومى وإضعافه أن تجعل تراثها وذكرياتها نصب عينها دائماً ، وأن تتخذها عدة وذخراً لتغذية هذا الشعور وإذكائه . ولما كان التفكير والأدب خير أداة لتحقيق هذه الغاية ، فان الواجب الوطنى يقضى على كتابنا أن يرعوا هذه الناحية وأن يجعلوا لها أوفر نصيب من عنايتهم ، وأن يؤثروها دائماً بدرسهم واهتمامهم .

إن الآداب القومية التى نضجت وازدهرت فى كل النواحى والفنون لا غبار عليها اذا عنيت بالنواحى والشئون الأجنبية ما شاءت وما وسعت ، فهى بذلك تكسب دائماً ثروات جديدة ، ولكن حينما كانت الآداب القومية فقيرة كآدابنا ، وحينما كان التاريخ القومى منسياً مغموطاً ، وحينما كانت برامج التعليم والتربية عرضة لأهواء المستعمر ينفث فيها من وحيه الخطر ، ويعمل دائماً على محاربة عناصرها القومية ، يجب على قادة الفكر أن يتداركوا هذا النقص بأقلامهم وتفكيرهم ، وأن يقاوموا هذا الخطر ، فيقدموا دائماً الى الشباب الذى يحرم فى معاهد الدرس من الالمام الشامل بعناصر الثقافة القومية ، كل ما يقوم الشعور الوطنى ويصقله ويغذيه ؛ ويجب على الأدباء الناشئين أن يفكروا طويلاً فى اختيار الطريق المنشود قبل أن يحملهم تيار هذه الفتنة الأجنبية المضللة من عالم الآداب القومية الى فوضى موضوعات وشئون لسنا فى كبير حاجة اليها

يجب علينا قبل أن نقرأ عن مازاريك وموسوليني وهتلر ، وقبل أن نشيد بذكرهم فى كتب خاصة ، أن نقرأ عن أبطالنا وعظمائنا الذين يغمرهم النسيان والجحود ، وأن ندرسهم ونكتب عنهم ؛ فذلك دليل الأدب القوى المستنير ، وذلك دليل الوطنية الرفيعة ، والشعور القومى الحى ! «ع»

عرش الورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت جَلوةُ العروس كأنها تصنيفٌ من حُلم، توافتْ عليه أخيلةُ السعادة فأبدعت إبداعَها فيه، حتى إذا اتسق وتمّ، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدةِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العددُ القليل، لتحقّق للحي وجودَ حياته بسحرها وجمالها، وتعطيَه فيما يُنسَى ما لا يُنسى.

خرج الحُلُم السعيد من تحت النوم إلى اليقظة، وبرز من الخيال إلى العين، وتمثّلَ قصيدةً بارعة جعلت كل ما في المكان يحيا حياة الشعر؛ فالأنوار نساء، والنساء أنوار، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتمم من كل شيء معناه، والمكان وما فيه، وزنٌ في وزن، ونغم في نغم، وسحر في سحر.

***

ورأيت كأنما سُحرت قطعة من سماء الليل، فيها دارة القمر، وفيها نَثرة من النجوم الزُّهر، فنزلت فحلت في الدار، يتوضّحن وتأتلِقْن من الجمال والشعاع، وفي حسن كل منهن مادة فجرٍ طالع، فكنّ نساء الجلوة وعروسَها.

ورأيت كأنما سُحر الربيع، فاجتمع في عرش أخضر، قد رُصّع بالورد الأحمر، وأقيم في صدر البهو ليكون منصّةً للعروس، وقد نسقتْ الأزهار في سمائه وحواشيه على نَظمين: منهما مفصّل ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما؛ ومنهما مُكرَّس بعضه فوق بعض، من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنه عشٌ طائر من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سقى الكوثر أغصانَها.

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين رَبوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه، يحملهما خَمْلٌ من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تتهافتُ من رقتها ونعومتها.

وعُقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر كأنما نزع عن مَفرِق ملك الزمن الربيعي، وتنظر إليه يسطع في النور بجماله الساحر سطوعا يخيّل إليك أن أشعة من الشمس التي ربّتْ هذا الورد لا تزال عالقة به، وتراه يزدهي جلالاً كأنما أدرك أنه في موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة تألفت من عروسين كريمين.

ولاح لي مراراً أن هذا التاج يضحك ويستحي ويتدلل، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثّل وجه الورد.

ونُصّ على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما، ويكسوهما طِراز أخضر تلمع نضارته بشراً، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحةِ لمسةٌ من فرحها الحيّ.

وتدلّت على العرش قلائدُ المصابيح كأنها لؤلؤ تخلّق في السماء لا في البحر، فجاء من النور لا من الدر؛ وجاء نوراً من خاصته أنه متى استضاء في جو العروس أضاء الجوّ والقلوبَ جميعاً.

وأتى العروسان إلى عرش الورد، فجلسا جِلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء؛ وأقبلت العذارى يتخطرْن في الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح، ثم وقفن حافّاتٍ حول العرش، حاملات في أيديهن طاقات من الزّنبق، تراها عطرةً بيضاء ناضرة حَييّة، كأنها عذارى مع عذارى، وكأنما يحملن في أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانيَ قلوبهنّ الطاهرة؛ هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيحَ أخرى فيها نورها الضاحك.

واقتعدَتْ درجَ العرش تحت ربوتي الزهر ودون أقدام العروسين — طفلةٌ صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتها، فكانت من العرش كله كالماسة المدلاّة من واسطة العقد وجعلت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبانُ مُنزَوٍ لا يريد أن يُرَى.

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيار من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له روحَ طفل بَغتته مسرّةٌ جديدة.

وكانت جالسة جلسة شعر تمثل الحياة الهنيئة المبتكرة لساعتها ليس لها ماضٍ في دنيانا.

ولو أن مُبدِعا افتنّ في صنع تمثال للنية الطاهرة، وجيء به في مكانها، وأخذتْ هي في مكانه لتشابها وتشاكل الأمر.

وكان وجودها على العرش دعوة للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه .

وكانت بصغرها الظريف الجميل تعطى لكل شىء تماماً ، فيُرى أكبر مما هو ، وأكثر مما هو فى حقيقته . كانت النقطة التى استعلنت فى مركز الدائرة ، ظهورها على صغرها هو ظهور الاحكام والوزن والانسجام فى المحيط كله .

***

لا يكون السرور دائماً إلا جديداً على النفس ، ولا سرور للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن فى كل دينار قوةٌ جديدة غير التى فى مثله لما سُرّ بالمال أحد ، ولا كان له الخطر الذى هُوَ له ؛ ولو لم يكن لكل طعام جوع يورده جديداً على المعدة لما هَنأ ولا مَرأ ؛ ولو لم يكن الليل بعد نهار ، والنهار بعد ليل ، والفصول كلها نقيضاً على نقيضه ، وشيئاً مختلفاً على شىء مختلف — لما كان فى السماء والأرض جمال ، ولا منظر جمال ، ولا إحساس بهما ؛ والطبيعة التى لا تُفلح فى جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك — لن تُفلح فى جعلك مسروراً بها ، لتكون هى جديدة عليك .

وعرش الورد كان جديداً عند نفسى على نفسى ، وفى عاطفتى على عاطفتى ، ومن أيامى على أيامى ؛ نزل صباحُ يومِه فى قلبى بروح الشمس ، وجاء مساءُ ليلته لقلبى بروح القمر ؛ وكنت عنده كالسماء أتلألأ بأفكار كما تتلألأ بنجومها ؛ وقد جعلنى أمتدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلها ، إذ قدرت على أن أعيش يوماً فى نفسى ؛ ورأيت وأنا فى نفسى أن الفرح هو سر الطبيعة كلها ، وأن كل ما خلق الله جمال فى جمال ، فانه تعالى نور السموات والأرض ، وما يجىء الظلام مع نوره ، ولا يجىء الشر مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الانسانى خَلْقَ أوهامه فى الحياة ، وإخراجه النفسَ من طبائعها ، حتى أصبح الانسان كأنما يعيش بنفسٍ يحاول أن يصنعها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يزيغ بالنفس التى فطرها الله .

يا عجبا ! ينفر الانسان من كلمات الاستعباد ، والضعة ، والذلة ، والبؤس ، والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها .

***

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحاً ، لأنه من الأيام التى تجعل الوقت يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكون بالعواطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها .

كان الشباب فى موكب نصره ، وكانت الحياة فى ساعة صلح مع القلوب ، حتى اللغة نفسها لم تكن تلتقى كلماتها إلا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة ، آتية من هذه المعانى دون غيرها ، مُصوَّرة على الوجوه إحساسها ونوازعها ؛ وكل ذلك سِحْرُ عرش الورد ؛ تلك الحديقة الساحرة المسحورة التى كانت النسمات تأتى من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل : أهذه حديقة خُلِقت بطيور إنسانية ؛ أم هى شجرة ورد هبطت من الجنة بمن يتفيأن ظلها ويتنسَّمنَ شذاها من الحور ؛ أم ذاك منبع وردىّ عطرىّ نوارنىّ لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش ؟

يا نسمات الليل الصافية صفاءَ الخير ، أسأل الله أن تتبع هذه الحياة المقبلة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيى ؛ فان هذه العروس الممتلية عرش الورد :

هى ابنتى !؟

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

شخصية نسوية أندلسية

١ - صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حظية خليفة ، أم خليفة ؛ سيدة مطلقة الرأى ، تولى وتعزل الوزراء والقادة ؛ وتدبر شئون السلام والحرب ، حسناء يغنم جمالها ملكاً ، ويأسر خليفة ، ويسيطر على قصر وحكومة ؛ صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الاسلام ؛ نصرانية ناقارية مع ذلك ؛ تلك هى صبح أو صبيحة أو « اورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس ، وأم ولده هشام المؤيد بالله

يقدم الينا التاريخ الاسلامى أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى ، سطعن فى قصور الخلفاء والسلاطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ؛ ولكنه لا يقدم الينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانيـة بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخير الاسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلاً أسطع من مثل صبح أو « اورور » ، تلك الفرنجية الحسناء التى لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى احدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات اللائى يقدمهن الينا تاريخ الأندلس منـذ الفتح ، واللائى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحياناً . ونستطيع أن نذكر منهن « ايلونا » القوطية أرملة ردوريك (لذريق) ملك القوط عنـد الفتح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » ، فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووحيها السيء من الأسباب التى أدت الى مقتل عبد العزيز بن موسى (سنة ٩٥ هـ) ؛ ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء ابنة اودو أمير اكوتين ، تزوجها عثمان بن أبى نسعة الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » ، وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه) ، وتحالف مع أبيها الدوق اودو ، وأخذ يدبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايتـه ؛ ولـكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قوياً لبث يطارده فى الجبال حتى أخذ وقتل وأسرت زوجته الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت الى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) ؛ ومنهن ماريا الاسبانية النصرانيـة زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الاسلام فى الأندلس ويسميها العرب « مزنه » ؛ ومنهن أخيراً « ثريا » النصرانية زوج السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة أسبانية وابنة قائد شهير ، أخذت أسيرة فى بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها ؛ وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير فى إضرام نار الحرب الأهلية فى غرناطة وفى سير الحوادث التى أدت الى ذهاب دولة الاسلام فى الأندلس .

ظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) (٩٦١ - ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى ؛ وكل ما تقدمه الينا الرواية الاسلامية فى ذلك هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية[1] أى ناقارية[2] ؛ ولا تذكر الرواية ان كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع بين المسلمين والنصارى ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ؛ ولـكنها تصفها بالجارية والحظية . وصبح أو صبيحة ترجمة لـكلمة « اورورا » Aurora الفرنجية ومعناها الفجر أو الصبح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[3] . وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[4] ، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعـد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ، ولم يكن رزق ولداً بعد ؛ وكان يتوق الى ولد يرث الملك من بعـده ؛ فحققت أمنيته على يد صبح ، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن سـنة ٣٥٢ هـ

(١) البيان المغرب — ج٢ ص٢٦٨ و٢٦٩ — دوزى (الطبعة الجديدة) ج ٢ ص ١٩٠

(٢) يسمى العرب اقليم نافار ببلاد البشكنس محرفة عن اسمها القديم « Bascon » وأحياناً يسمونها « بسكونية »

(٣) راجع كوندى — (الترجمـة الانكليزية) ج ١ ص ٤٩٣ — ودوزى — ج ٢ ص ١٩٠

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣

(٩٦٢ م) وفرح بمولده أيما فرح ، وسمت لديه مكانة صبح ؛ ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاماً (سنة ٣٥٤ هـ) ، ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن فاشتد حزنه عليه ، وعقد كل آماله على ولده هشام ؛ ولبثت صبح تستأثر في البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم ، بارعة في تدبير الشئون ، مخلصة لسيدها تعاونه في تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الاسلامية الى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ؛ ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع في البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ، فالرواية الاسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[1] ، وتصفها التواريخ الافرنجية «بالسلطانة صبح»[2] . بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و « أم ولد » فقط . وتصفها الرواية الاسلامية بعد موت الحكم بأنها « أم ولد »[3] ، وهو في الشريعة وصف الجارية التي حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده .

وعلى أي حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع في البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له ؛ وكان الحكم يثق باخلاصها وحزمها ويستمع لرأيها في معظم الشئون ؛ وكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة . وكان كبير الوزراء ، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفي يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصاير الأندلس . تلك هي شخصية فتى مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ؛ أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طرش ، ووفد على قرطبة حدثاً ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في الآداب والشريعة . وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال ، وكان في نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لادارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصحفي فيمن رشح لتولى هذا المنصب . وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[1] . ولما توفى عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة في وظائف الدولة فأضيف اليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث ، فقاضياً لكورة اشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص)

ويرجع الفضل في تقدم محمد بن أبي عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لاتزال في زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الاعياء والمرض ؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتن من جهة أخرى في خدمة صبح وإرضائها ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً . فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جميعاً ويعجب له ؛ ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ؛ انه لساحر عليم أو خادم لبيب . وإني خائف على ما بيده »[2] ، ولم تلبث علائق

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ — والبيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) راجع كوندى — ج ١ ص ٤٨٠ و٤٩٣ — ودوزى — ج ٢ ص ١٩٠ و١٩٨

(٣) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٩ — المعجب للمراكشى ص ١٤

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقرى عن ابن حيان رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصته أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت صبح من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسنت كتابته وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧)

(٢) البيان المغرب — ج ٢ ص ٣٦٨

صبح وابن أبى عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ؛ ولم يك ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التى عين للنظر عليها فى شراء التحف والانفاق على أصدقائه ؛ فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها ؛ وكان بالخزانة عجز لجأ ابن أبى عامر فى تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن جدير فأغاثه ؛ وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ؛ فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه ، واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه ، ينتدب لعظيم المهام والشئون ؛ وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصحب والانصار بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم فى آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبى الوليد هشام ، وهو يومئذ غلام فى نحو العاشرة من عمره ؛ وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ؛ وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع . ونفذ هذا المشروع فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام فى حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ودعى له فى الخطبة على المنابر ونقش اسمه فى السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحى لأخذها من الأكابر والأعيان ، وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً . ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر ؛ وكان المرض يشتد عليه منذ حين ، ثم أصابه الشلل ، وتوفى فى الثالث من صفر سنة ٣٦٦ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م)

***

ولما توفى الحكم المستنصر بالله كانت مقاليد السلطة مجتمعة فى أيدى ثلاثة : هم صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص) . ولم يكن يعترض على بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ؛ وكان رأيهم أن تؤخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ؛ ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم فى الحال ، واستدعى القواد والجند الذين يثق باخلاصهم تحوطاً للطوارىء ، واتفقت الكلمة على تولية هشام ، وقتل المغيرة ؛ ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده هشام ولقب المؤيد بالله ، وتولى الحاجب جعفر وابن أبى عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبى عامر فى نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه ؛ ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ؛ وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره ؛ وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر ، ومشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده . وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ؛ وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته والمحسنة اليه ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ما يضطرم به من الأطماع الخفية ، أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوى كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً ، ولا سيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر ، وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر فى عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً ، وكان ابن أبى عامر يرى عندئذ فى صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم ، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ، ولكنه مذ توفى الحكم ، وأضحت جميع السلطة الشرعية مجتمعة فى يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ، أخذ يتأهب للعمل فى طريق آخر ، ويرى فى خليلته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لارادته ، ويسخرها لمعاونته ، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل الذى سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى . فلم تمض

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

الحـــــرمان

للأســـتاذ على الطنطاوى

كتب الأديب المكى الغيور السيد احمد على ، فى الرسالة السابعة والخمسين : (يظهر الأسف الزائد اذ لم تقع عينه — وهو يراجع الفهرس للسنة الأولى ، ويتتبع أعداد الثانية ، على اسم كاتب حجازى ، يكون قد اشترك مع اخوانه وزملائه العاصرين فى الأدب ، على صفحات هذه الصحيفة الغراء . . . ويؤمل من مديرها الفضال الأستاذ الزيات ، اذا أراد ، أن يشيد بذكر أبناء الرافدين والنهرين ، ألاّ ينسى الحرمين ، كذلك)

فأحببنا أن نلحق بكلمته هذه لكلمة :

* * *

ألم يشد أستاذنا الزيات بذكر الحرمين يا سيد احمد على ؟ فما هو اذن عدد الهجرة الممتاز ، وما هى تلك المقالات الاسلامية العربية ؟

أما ان الرسالة اذا نظرت الى أمر ، فانما تنظر اليه نظرة سامية فيها حكمة وفيها جلال ، ولا يعنيها من « الحرمين » أخبار دائرة الصحة ، ورسوم الحج ، ولكن يعنيها حياة محمد (ص) وظهور الاسلام ، وعظمة الفتوح ، وجلال حكومة الراشدين ؛ ولا يهمها من «النيربين» تنظيم الميزانية ، ومناقشات المجلس البلدى ، ولكن يهمها تاريخ بنى أمية ، وسعة الفتوح ، وعز العروبة ؛ ولا تحفل من « الرافدين » بقرارات الغرفة التجارية ، وأخبار الجند ، ولكن تحفل بحضارة الاسلام ، ومجد المنصور والمأمون ، ونهضة العلوم والفنون .

وتحفل بعد هذا كله ، بالصورة المشرقة الوضاءة ، صورة هذا الماضى الجليل ، حين تظهر فى صفحة الأمل الجميل ، ذلك لأنها « تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية » ولأنها ليست جريدة يومية إخبارية .

فهل تراها بعد . لم تشد بذكر الحرمين ؟

* * *

وهل نسى أستاذنا الزيات الحرمين ياسيد احمد على ؟ وهل يستطيع مسلم واحد على وجه الأرض أن ينسى الحرمين ، وهو يستقبل الحرم خمس مرات كل يوم ؟

يستقبله اذا سمع المؤذن يشق سكون الليل ، بهذا النداء العلوى الجليل : « حىّ على الفلاح ، لا إله إلا الله » فينهض من فراشه ، يستأنف الحياة والليل يولى ساكناً خاشعاً ، والنهار يقبل مشرقاً زاهياً ، والأطيار تتلو بلغة الطير سورة الحمد والشكر ، فيتوضأ ، ويحسّ فى نفسه السموّ والجلال — ذلك السموّ الذى حالت الحضارة الغربية ... بيننا وبينه ، فقطعنا مذ لبسناها أجمل مراحل الحياة نياماً ، وغفلنا عن داعى السماء ، حين ينبعث فى تلك الساعة هاتفاً بالنفوس المؤمنة الطاهرة : ألا من مستغفر فأغفر له ؟ ألا من داع فأستجيب له ؟ ألا من سائل فأعطيه ؟

يتوضأ ، ثم يستقبل «الحرم» وينسى كل شىء إلا «الحرم» ، ثم يخشى أن يشغله الحرم عن الصلاة ، والصلاة انقطاع عن الدنيا الفانيـة ، واتصال بجلال الله الباق ، فيرفع يديه ويقول : الله أكبر ، ويدخل فى الصلاة فينسى كل شىء ، إلا الله الذى يقوم بين يديه .

ويستقبله إذا زال النهار ، وقامت الدنيا على قدم وساق ، تدعو أبناءها وعبادها ، إلى ما أعدت لهم من اللهو واللعب ، فاستبقوا اليه ، واقتتلوا عليه ... معرضاً عن نداء الدنيا ، مجيباً داعى الله ، فيقوم بين يدى رب العالمين ، مولياً وجهه شطر المسجد الحرام ، تاركا وراء ظهره الدنيا وما فيها !

بضعة أيام على تولية هشـام ، حتى رفع ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة ، فى نفس الوقت الذى أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له [1] ، وهكذا أشرك ابن أبى عامر فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً ، وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ، ويرتاب فى أطماعه ونياته ومن ذلك اليوم اضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته .

محمد عبد الله عنان
المحامى

« للبحث بقية »

(١) البيان المغرب — ج ٢ ص ٢٧٠

ويستقبله اذا أخذت نفسه حظها من طعامها وشرابها وراحتها وقنعت من الدنيا بما نالت منها — وما الدنيا إلا ما يملأ بطناً ، ويكسو جسما ، ويريح نفساً ... يستقبله حامداً شاكراً .

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) إياك نعبد وإياك نستعين (لا نعبد غيرك ، ولا نخشى سواك ، ولا نرجو النفع إلا منك ، ولا نخاف الضر ممن دونك . أنت الضار وأنت النافع ، وأنت المعطى ، وأنت المانع ؛ لامعطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا يجير عليك من نبى ولاولىّ ، ولا يشفع عندك إلا باذنك ملك ولا رسول »

ويستقبله إذا أطفئ المصباح الأعظم ، وغطى الليل بسواده الفاحم على بهاء الدنيا وجمال الأصيل ، فلاتشغله الرياض والجنان ، ولا الورود والثمار ، عن واد غير ذى زرع ، عند بيت الله المحرّم .

ويستقبله إذا عمّ الظلام ونام الكون ، وأقبل على الفراش يسلم روحه إلى خالقها . لا يدرى أتعود أم تبقى فى عالم الخلود ، فيكون « الحرم » آخر ما يقبل عليه ويذكره من هذه الدنيا .

فهـل ينسى مسلم « الحرمين » . أو هل ينساها أستاذنا الزيات وهو الذى يذكر الناس ؟ !

* * *

أولم ترَ ياسيد احمد على كاتباً حجازياً فى الرسالة ؟ أين أنت يا سيدى ؟ وأىّ شىء يكون كتاب الرسالة اذا لم يكونوا مسلمين عرباً حجازيين ؟ أهم روم ؟ أهم يونان ؟ أهم فنيقيون ؟ أهم فرس ؟

أليس أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام من أبناء الحجاز الذين خرجوا من الجزيرة تحت راية محمد ، ففتحوا العالم واستقروا فيه ؟ أليس عمرو وجيشه من أهل الحجاز ؟ أليس سعد وجنده من أهل الحجاز ؟ أليس أبو عبيدة وخالد وأصحابهما من أهل الحجاز ؟ أليس بنو أمية حجازيين ؟ أليس بنو العباس حجازيين ؟

كأنى بك تريد أن تقول : هاك كتاب الرسالة السابعة والخمسين : إن مختار الوكيل مصرى ، وطوقان فلسطيني ، وعباسى أردنى ، وفتاة الفرات عراقيـة ، وباكثير حضرمى . ولـكن لا . ليس فى قاموسنا مصرى ولا شامى ! ولـكن فيـه مسلم ، وفيه عربى .

وأى مسلم لا يرى الحجاز وطنه الأول من جهة النسب ومن جهة الدين ؟

وأى عربى (كائناً ما كان دينه) لا يرى الجزيرة محتده وأصله ، ومحمداً سيد العرب فخره ؟

* * *

وهل ينسى مكة مسلم يتلو قول الله :

(لتنذر أمّ القرى ومن حولها)

(والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين)

(لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد)

(وليطّوّفوا بالبيت العتيق)

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس)

(رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام)

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم)

و يتلو قول رسول الله (ص) حين فارق مكة مهاجراً :

(إنى لأعلم أنك أحب البلاد الىّ ، وأنك أحب أرض الله الى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت)

* * *

ومن ينسى مكة وفيها تاريخ أشرف أمة . وهى أشرف مدينة : لم تدن مذ خلقها الله لملك أجنبى عنها ، ولم يؤد أهلها أتاوة لأحد ، كانت تحج اليها ملوك حمير وكندة ولخم وغسان ، فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضاً مفروضا ، وشرفاً لهم عظيماً ، وكان أهلها آمنين ، يغزون الناس ولا يُغزون ، ويَسْبون ولا يُسبون :

أبوا دين الملوك فهم لقـــاح إذا هيجوا الى حرب أجابوا

وكان أهلها فى جاهليتهم حلفاء متألفين ، ومتمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه السلام ، ولم يكونوا كالاعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقره دين ، ولا يزينه أدب ، وكانوا يختنون أولادهم ، ويحجون البيت ، ويقيمون المناسك ،

وكانوا يتزوجون أى القبائل شاءوا ، ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشرطوا عليه بأن يكون متحمساً لدينهم ، يرون أنه لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدين لهم

وكان العرب منـذ الجاهلية يحجون البيت ، ويعتمرون

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

قرطبـــة*

نبذة تاريخية عنها

كانت قرطبة تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة. وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولاسيما الجامع المعروف «بجامع قرطبة» وظلت عاصمة للأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوك بني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس، وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لاحدى مكاتب (دور كتب) تلك المدينة العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن ادارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح والمطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها «قرطبة» إذ استقلت سنة ٤٢١ هـ — ١٠٢٩ م، واستولى عليها «أبو الحزم بن محمد بن جهور»، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢ — هـ ١٠٣٠م)، ولما مات (٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) تولى الأمر بعده ابنه «أبو الوليد محمد بن جهور»، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلعوه، وأخرجوه من قرطبة (٤٦١ هـ) متحدين مع جيش محمد بن عباد. وبسقوطه انقرضت دولة بني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة ١٢٣٦ م استولى عليها الأفرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصناً على حـــدود مملكتهم، وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسمة...

معيشة أهلها وصنائعهم:

أما في تلك العصور الزاهرة فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في خفض من العيش ورفاهية وسعادة، ومما ساعدهم على تلك الرفاهيـة إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم، كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها وطليطلة بتفننها في صنع الأسلحة، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ.. وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى الى المدن الأندلسية، والى خارج البلاد أيضاً..

العلم والأدب:

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد (مؤلف الحلة الذهبة في مملكة قرطبة): «أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث: بأصالة البيت، وبالجندية، وبالعلم. قال: وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب، ويحتفظ فيها، ليس إلا لأن يقول: عنـدي خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عنـــد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به...»

وكان فيها مكاتب كثيرة كبيرة، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار

* من كتابنا عن الأندلس وسينشر عن قريب

ويطوفون. فاذا أرادوا الانصراف أخذ رجل منهم حجراً من حجارة الحرم، يتذكرها به ويجله (١)...

***

هذا ولك الحق ياسيدي الأديب، في أن تأسف إذ لم تر لواحد من سكان بلدك بحثاً أو مقالة في الرسالة، ولكنما هم الملومون ياسيدي لا الرسالة. وما أحسب الرسالة تنشأ (لتسجل ظواهر التجديد في الأدب العربي، وتكون ديوان العرب المشترك) ثم تسد بابها في وجه قوم هم خلاصة العرب، وبنو خلاصتها، فانشروا فيها يا سيدي، نقرأ لكم، ونستفد منكم، ونشكركم. وعليك ياسيدي الأخ الأديب السلام ورحمة الله...؟

دمشق — علي الطنطاوي

(١) ياقوت

الأخرى ، بكثرة علمائهم وأدبائهم ، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف ، وعلى حبهم للعلماء والأدباء ، واحترامهم لهم ، ولصناعة العلم والأدب .

وكان للحكم الثانى فى قرطبة مكتبة ، فيها ستمائة ألف كتاب(١) لها أربعة وأربعون فهرساً ، فى كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط ! ! . ويقول جستاف لوبون — بهذه المناسبة — إن شارل الحكيم الذى تولى أمر فرنسا بعد خلافة الحكم باربعمائة سنة (١٣٦٤ م) بذل جهده فى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين أسسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية ! . . .

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة ، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة ، يقصدها طلاب العلم الراق والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة ، ومنهم البابا سلفستر الثانى ، وكان قد ذهب الى أشبيلية فدرس فيها زمناً ، ثم الى قرطبة ، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩ م) ، وكان يسمى قبلاً الراهب جربرت ، وممن تخرجوا فى جامعات قرطبة ، بطرس فنرابل وقسيس كولونى ، وكذلك « شانجه » ملك ليون ، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب اليوم الى جامعاتهم التى حلت محل الجامعات العربية ، والله يغير ولا يتغير ، والله على كل شىء قدير ! . . .

وكان فى قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون ، نذكر منهم « أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدى القرطبى » الملقب « بصائن الدين » وهو أحد الأئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة الخ . . ولد بقرطبة (٤٨٦ هـ) ومات بالموصل (٥٦٧ هـ) . وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف (بابن الفرضى) وكان فقيهاً عالماً من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (حسن فى المختلف والمؤتلف) و (فى أخبار شعراء الأندلس) ، وقد ولد سنة ٣٥١ هـ . وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣ هـ وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤ هـ . ومات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

وأحمد بن محمد بن عبد البر ، من موالى بنى أمية ، له كتاب فى الفقهاء بقرطبة ، ومات فى السجن لليلتين بقيتا من رمضان . ومنهم (أحمد بن محمد بن موسى) له مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس ، توفى فى ١٢ رجب سنة ٣٤٤ هـ . وولد فى (١٠) ذى الحجة سنة ٢٧٤ .

و (خالد بن سعيد القرطبى) أحد أئمة الأندلس ، مات فجأة فى سنة ٣٥٢ هـ فى الستين من عمره ، وحسن بن الوليد بن نصر وابن الدباغ الأزدى ، وغيرهم . وغيرهم . .

خطط قرطبة :

تقع قرطبة على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير ، وبينها وبين البحر خمسة أيام ، وذكر ياقوت الحموى فى معجمه أنها كانت « أعظم مدينة فى الأندلس ، وليس لها فى المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة ، ويقال إنها كأحد جانبى بغداد ، وان لم تكن كذلك فهى قريبة منها ، وهى حصينة بسور من حجارة ، ولها بابان مشرعان فى نفس السور الى طريق الوادى من الرصافة — والرصافة مساكن أعالى البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها ، مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربيها وجنوبيها ، فهو الى واديها ، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها . . . »

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً ، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً ، فى كل ربض من المساجد والأسواق مايقوم بأهله ، ولايحتاجون الى غيره ، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر وفقيه . »

وكان فيها (٢٠٠٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوق ، فضلاً عن الثمانين مدرسة التى ذكرنا ، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٢٠ ذراعاً ، وفيها ثمانى عشرة حنية ، وتسعة عشر برجا .

وقد تنافس الخلفاء والأمويون فى تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها ، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له ، وشيد المنصور بن أبى عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادى الكبير ، وانتقل اليه سنة (٣٧٠ هـ) وبنى باقى الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكرمنها « الحائر » ، الروضة ،

(١) ويقول المقرى فى نفح الطيب إن المكتبة كانت تحوى أربعمائة ألف كتاب ، وهو مخطىء ولاشك ، لأن أغلب المؤرخين الحديثين (ولاسيما الغربيين منهم) يقولون إنها ستمائة ألف ، وليس أربعمائة ألف

المعشوق ، المبارك ، التاج ، السرور الخ . .

ولكن أعظم بنايات قرطبة ، بل الأندلس كلها ، المسجد الجامع ، الذى شيده عبد الرحمن الداخل ، وكان فى الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة .

جامع قرطبة :

والواقع أن هذا المسجد آية من آيات الفن العربى ، ودليل قاطع على علو كعب العرب فى النقش والبناء ، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربى ، والقدرة الفنية العربية . ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور فى ذلك العصر سوى الجامع الأموى بدمشق ، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارىء وصفاً وتصويراً صادقين ، بل ليس من السهل على القارىء أن يدرك عظمته إذا مانظر الى عدة صور فوتوغرافية عنه ، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا فى أن نعطيك فكرة عامة عنه :

فطول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٢٠ متراً ، وفى عرضه الأيمن ٣٨ صحناً ، والأيسر ٢٩ صحناً ، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام ، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة . « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع) ، وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من العسجد »

أما الباب العموى — وهو باب المنارة — فهو من النحاس أيضاً ، عرضه ٨ م وارتفاعه ٢٠ م ، وفى الزاوية القبلية من المسجد تقوم منارته العظيمة ، وهى مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ م وارتفاعها ١٣ م ، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية ، محيط كل منها نصف متر أو أكثر بقليل . ويقول صاحب « رحلة فى الأندلس » : إنها خمس طبقات فى كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر ، والمحراب والمقصورة من أجمل مافى المسجد ، ففى تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون « وهى بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جداً ، وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية » وأما المحراب ففسيح واسع ، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية ، وكان فيه المصحف العثمانى الشريف ، وقد نقله عبد المؤمن بن على الى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢ هـ .

وفى المسجد (٤٧٠٠) قنديل من الذهب الأبريز ، واحد منها فى المحراب ، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيتاً و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود القاقلى . . .

* * *

قال الأستاذ سديو : « وكانت هذه المدينة تصبح مضيئة ، وحاراتها مطيبة ، بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة فى المتنزهات والميادين العامة . . »

هذا بعض من كل ، وقليل من كثير ، عن حالة قرطبة فى تلك العصور التى بلغت العظمة العربية فيها الحد الأقصى من الرفعة والسمو ، والتى خلد فيها أبطال العرب أسماءهم فى أنصع صفحات التاريخ ، ورفعوا أممهم إلى المكانة اللائقة بها .

البصرة — **عبد الكريم وعبد الصمد الناصرى**

مصادر البحث : وقد ترجمنا الأسماء الأفرنجية الى العربية
١ — معجم البلدان : ياقوت الحموى
٢ — نفح الطيب فى تاريخ الأندلس الرطيب : المقرى
٣ — رحلة فى الأندلس : محمد لبيب البتنونى
٤ — ملخص تاريخ العرب : سديو
٥ — فلسفة التاريخ : ميلر
٦ — دائرة معارف القرن العشرين : فريد وجدى

شلفون بعد نصف عام !...

بقلم منير الجم الطرابلسي

رحم الله هذا الموسيقي الراحل ، فقد عاش طريداً شريداً ، غريباً في وطنه ، منبوذاً من أهله ومن الناس ، ومازال مع الخطوب في صراع وعراك حتى فجأته كارثة دهماء أجهزت على حياته المنكودة ، فكان ضحية غالية على مذبح الفن لم يدر أحد من أمرها شيئاً !

عاش في دنياه مجهولاً ، وجاهد في سبيل الفن مغبوناً ، ولقي حتفه باليأس والبؤس ، ثم لجأ إلى بارئه يشكو مكر الانسان ، وختل الصديق ، وجور الدهر !

وقعت الواقعة ، ونزلت النازلة ، وانهار صرح (كوكب الشرق) في بيروت ، فكانت نكبة نكباء ، وجبت لهولها الأفئدة ، وهلعت القلوب ، والناس حول الضحايا في مأتم يكون ، هذا يرثى أباه ، وذاك يبكي أخاه ، وآخر يذرف الدمع على صديقه مدراراً . إلا هذه الضحية المجللة بروعة الفن ، كانت في عزلة عن اهتمام الجمع ، فانهم جهلوها أو تجاهلوها ، ونسوا ماضيها وحاضرها ، وما أسرع الناس في نسيان الماضي ، وجحد الفضل ، ونكران الجميل !

ولكن لم تخل الأرض من أخيار بررة قاموا بواجب التأبين في محفل الوليد ، وشاركتهم بعض صحف حرة في نشر الترجمة ، وتعديد المناقب والمزايا ، فكانت تعزية للراحل الكريم في الأولى والآخرة ؛ ثم أسدل الستار على ذكراه ، فلم يفطن اليه محفل أو ناد ، حتى ولا تلاميذه ، وما ذلك إلا لأنه كان بائساً معدماً ، أبيّ النفس ، عالي الهمة ، كارهاً للشهرة والظهور ، شأنه في ذلك شأن عظماء الفن ، يصهرون نفوسهم الزكية في مثلهم العليا ، ثم يتلاشون في سكون وهدوء !

كان موسيقياً نابغاً فياض العواطف والشعور ، وكان أديباً كبيراً مملوءاً بنفس سامية تأبى أن تذل ، جاهد في مصر زمناً ينشر علينا من أريج (روضة بلابله) الفناء مايسر النفس ، وينعش القلب ، حيث المبتكر الساحر ، والجديد السائغ في الموسيقى والأدب ؛ ثم ناهضه الحساد فرحل إلى دمشق عله يخفف اللوعة فيها والأسى ، فكان نصيبه الصد والفشل والاخفاق ! فلما ضاقت الأرض عليه بما رحبت سعى إلى عاصمة لبنان ، وكأنه كان على موعد من منيته ، فدهمته أشنع ميتة يموتها إنسان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

مات ولما يتم جهاده الشريف ، ولم يجن ثمار أدبه وفنه ، وأبى حظه العاثر أن يكون موفقاً في حبه وإخلاصه ، بل في حياته ومماته ، فقد كان يعلم ذلك كل العلم ، ويتأكده كل التأكيد ، فألف قطعته الخالدة (الألم) رمزاً لذاته ، وشعاراً لبؤسه ، وعزفها على مسمعنا يوم كنا لديه في عاصمة الأمويين ، فسحرنا بأنغامها الشجية ، وغمرنا في ذهول من الحزن عميق ، نرثى لحاله ونتألم ، ولا غرو فحياته سلسلة آلام مبرحة ، ختمت بفاجعة مروعة ، قضت على آماله الجسام ، وذهبت بنبوغه الرائع

أما ورثاء نوابغ الفن علينا واجب ، وذكر الفقيد البائس أوجب ، فقد أديته قسطي على قدر المستطاع ، كما أرجو أن يذكره كل مخلص غيور ، ففي ذمة الله والتاريخ فقيدنا الكريم ، وفناننا المجهول !

حماه — منير الجم الطرابلسي

العامل الاقتصادى فى الأدب

للآنسة فكرية زكى

دبلوم فى التربية والآداب

أريد أن أعالج موضوع الأدب من الوجهة الاقتصادية ، لأن كثيرا من الأدباء يمنعهم الحياء من التبسط فى شرح ذلك ، مع أن هذا الموضوع جدير بالبحث والنظر ، لأن هناك صلة تصل المؤلف بالقراء ، فالمؤلف لا يكتب إلا لقرائه ، سواء فى الجيل الحاضر أو فى الأجيال الآتية ، ولم يخلق بعد المؤلف الذى يكتب لنفسه . وإذا رجعنا بالبصر قليلاً وجدنا أن كثيرا من أمهات الكتب القديمة التى ننعم بها لم يكتبها مؤلفوها إلا تحت رعاية عظيم أو تشجيع كبير ، مما لا نتبسط فى شرحه وبيانه ، غير أن هذه الكتب لم تكن فتحاً فى الأدب .

فالأدب الصحيح الذى يصور الحياة فى صورها الصادقة لا يولد فى كنف عظيم أو رعاية كبير ، لأنه إذ ذاك لا يصدر عن نفس حرة طليقة من قيود المادة ، ولذلك لم تولد أمهات الكتب فى الأدب الحديث إلا مع وجود القراء ، وإذا أردت دليلاً على ذلك فان لويس الرابع عشر أغدق المال على رجال العلوم والفنون إغداقا ليس له نظير ولا ضريب ، ثم لم ينبغ فى عصره كاتب ولا فنان ، لأن يد الاحسان كانت تعقل أفواههم ، فلا يقولون إلا ما يرضيه ، ولا يعملون إلا ما يحسن لديه ويجمل فى ناظريه ، ولم أجد كاتباً فصل ذلك فى وضوح وجلاء إلا (بكل) Buckle فى كتابه الممتع تاريخ الحضارة فى انجلترا .

والكاتب مهما قنع بالقليل يجب أن يعيش قبل كل شىء ، فاذا كانت رعاية الكبراء تحول دون الانتاج البكر فى الأدب ، بَلْهَ عدمها الآن ، فليس هناك وسيلة للأدب والأديب غير القراء . ولذلك نتساءل : هل يوجد الآن بيننا جيل القراء الذين يقبلون على قراءة الكتب القيمة فيساهموا فى إحياء الأدب ؟ . أم نحن نعيش فى عصر لم يخلق فيه القراء بعد ؟ ولا يمكننا أن نعلل ذلك بفقر القراء ، أو غلاء الكتب ، لأن ثمن أكبر كتاب لأشهر مؤلف لا يتجاوز ثمن تذكرة من تذاكر دور السينما .

وإذا قال مكابر بأننا نعيش فى ذلك العصر فاننا نطالبه بالدليل على ذلك ، أين هى الكتب التى طبعت مراراً ؟ لا أعلم كتاباً طبع للمرة العاشرة ، بله الثالثة أو الرابعة ؛ وتكرار الطبع دليل على رواج الكتب وانتشار الأدب . إذن ففى أى عصر نعيش ؟ أنعيش فى ذلك العصر الذى باع فيه ملتون روايته الخالدة « الفردوس المفقود » بعشرة جنيهات ؟ أم فى العصر الذى كان يعيش فيه جنسون موحد اللغة الانجليزية فلا يجد قوت يومه ؟ أستغفر الله ! بل نحن نعيش فى عصر الانتقال ، فى عصر تتكون فيه أجيال القراء ، « فالرسالة » تطالعك كل أسبوع ، والجرائد اليومية تطالعك كل صباح ، وهى تؤدى عملاً نافعاً لا يفطن اليه كثير منا ، فهى تخلق جيل القراء المقبل الذى سيساهم فى رواج الأدب ، ومتى وجد هذا الجيل فلا شك فى تطور الأدب تطوراً آخر غير ما نراه الآن . وإنى أرى بعين المستقبل أديباً كبيراً يقول لنا كما قال ما كولى عن أدباء عصره : « إنهم ينعمون بالثراء ومباهج الحياة ، بينما أشباههم ونظراؤهم من سبعين عاما كانوا يتضورون جوعاً . » غير انى أدعو الله أن تكون هذه الفترة فى تاريخ أدبنا أقل من سبعين سنة ، فانها وإن كانت قليلة فى أعمار الأمم طويلة فى حياة الأفراد . ؟

فكرية زكى

ابراهيم بك مرزوق وشعره

بقلم صلاح الدين الوذاعى

قرأت فى العدد السابع والخمسين من الرسالة ما كتبه الأستاذ محمود خيرت عن الشاعر المصرى ابراهيم بك مرزوق تعقيباً على كلمة المغفور له احمد باشا تيمور التى لم يلم فيها بنواحى حياته الأدبية إلماماً وافياً ، فوجدته فى مستهل كلمته يقول إنه كان يود لو أن بين يديه ديوان هذا الشاعر ليسد الفراغ الذى تركه تيمور باشا ، ويسرنى أن أحمل هذا الواجب الأدبى عنه ، فقد أتيح لى أن أقرأ نسخة مخطوطة من هذا الديوان ، سأنقل هنا شيئاً منها يعطينا صورة لحياة هذا الشاعر ومقدرته الأدبية

أسلوبه فى الشعر :

أما غزله فهو من الملاحة بمكان ، قال رحمه الله :

أشجتك شمس ملاحة ... فى غيهب الليل استنارت
أم بدر حسن طالع ... من حسنه الأقمار غارت
نظرت له عين المها ... فتعجبت منه وحارت
من منصفى من أعين ... فى حكمها فى القلب جارت
يا جنــة نيرانهــا ... فى قلب عاشقها استعارت
ما ضرها لـــا نأت ... لو أنها فى النوم زارت
يا شمس حسن بالحجا ... ب السندسى عنى توارت
غصن القوام عليـه كـ ... ـل قلوب أهل العشق طارت
ودوائر الأحزان من ... أطواقها بالصب دارت
وركائب الأشواق بالـ ... قلب الأسير اليك سارت

وقال أيضاً من قصيدة :

ما احتيالى قد صير الصد عاده ... ليته حين أسقم الصب عاده
ما احتيالى وكل من هام وجداً ... سلب الحب لبـه ورشاده
بين كاس الهوى وكاس الحميا ... قدر غالب له وإراده
فهو فى حالتيه حيران ألقى ... بيـد الذل والهوان قياده

ومن قصائده أيضاً هذه الخمرية البديعة :

هيا اسقيانى ثلاثاً واشربا قدحا ... يا ساقيى فزند اللهو قد قدحا
وأحييا دولة القصف التى دثرت ... وخليا الزهد للوعاظ والنصحا
وبادرا فرص اللذات واجتنبا ... من لام فى رشف كاسات الطلا ولحا
فقد خلعت عذارى غير معتذر ... ورحت أرفل فى برد الصبا مرحا
وقلت للرشد مالى فيك من أرب ... فارحل وقمت بثوب الغى متشحا

وفيها يقول بالتورية :

فعاطيانى وعين النجم شاهدة ... شمساً يقصر عن أوصافها الفصحا
لو أن عائبها قد ذاق لذتها ... ما كان عاب لها كأساً ولا (قدحاً)

وعلى ذكر التورية هنا أقول إنه كان ولوعاً بها مجيداً لها ، فمن ذلك قوله فى الرثاء :

يا راحلا فيـه ذقنـا ... ما كنا منـه احترزنا
كم قد حوينا هموما ... لما رحلت (وحزنا)

ومن محاسن اقتباساته قوله :

ومليح له سـلاسل شـعر ... وقلوب الورى بهن أسارى
كلما جال طرفه ترك النا ... س سكارى وماهم بسكارى

وقوله أيضاً :

قد كنت سليماً لا تدرى ... ما حلو الوصل من الهجر
فأطعت النفس وشهوتها ... إن الانسان لفى خسر

وللشاعر فى التخميس والتشطير مقـدرة عظمى تشهد له بالتمكن فى النظم مع سمو الخيال ، واتساق المعنى ، وقد نظم فى ذلك مقطوعات كثيرة لفحول الشعراء فخمس أغلب القصائد والمقاطيع المتداولة على ألسنة أهل الأدب للمتنبى ، والكمال ابن النبيه ، وتقى الدين السروجى ، والمعرى وغيرهم ، وكلها فى غاية الطرافة والحكمة ، ولولا طولها وكثرتها لأوردت هنا طرفاً منها لاثبات كفاية هذا الشاعر النادر ، وأنا لذلك أكتفى بذكر تشطيره للبيتين المنسوبين الى إبليس فى الخمر — على سبيل المثال — قال :

(وحمراء قبل المزج صفراء بعده) ... كوجنة خود راعها لثم سارق
إذا صبها فى عسجدى مخضب ... (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق)
(حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا) ... على نهبها الألحاظ من كل وامق
وصاغ حباب الماء فى حال صبه ... (عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق)

وعلى قلة الوصف والتشبيه فى شعره بلغ حد الاجادة والابداع ، فمن ذلك وصفه لمنشية النزهة باسكندرية :

باسكندرية للصفا منشيـة ... غـراء واضحـــة البها غنـاء
سطعت شموس الحسن فى أرجائها ... وبدوره فلها سنى وسـنـاء

حيث التفتّ رأيت أبهى روضة (سال النضار بها وقام الماء)

وقال في (فسقية) يتصاعد منها الماء

لله بل للحسن ماءٌ أحكمت فسقية تصعيده فتقطّرا

فجرى لجيناً من مذاب الدر أو سيّار بلّور سما فتقنطرا

ومن قصائده في الفخر والحماسة هذه القصيدة :

قامت تساجلني العلاء جدودي حتى تحقق فيّ رأى جدودي

واستنجدت بينا شمائل ماجد واستنجزت شيم الوفاء عهودي

وتغبّ في رسم الخمود مليحة لتشب ناري غير وشك خمود

وبسمع مني تقول لمن دنت منها أهذى حالة المجدود

أُردّ عمّا يبتغيه وعزمُه ماض وطالعه بسعد سعود

أولم يكن من لم تغر طلابه يوماً عليه لفضله والجود

أوليس من بهر الكواكب رفعةً بعلوّ صائب رأيه المعهود — الخ

وفي الديوان غير ذلك من المدائح والتهاني والمراثي والتعازي وباقي الفنون الأدبية من القصائد الشيء الكثير ، وكلها مليئة بالمحاسن والغرر — ولا سبيل إلى استقصائها هنا لكثرتها وتشعب أغراضها .

أسلوبه في النثر

وقد عثرت للشاعر على هذه الرسالة الفريدة ، المساة « برحلة الكرامة » التي كتبها إلى سعادة خيري باشا مهردار ، واقتصرت على بعض فقرات منها خشية الاطالة ، وهي التي ضمنت وصف رحلته الى الخرطوم ، قال رحمه الله :

« أهدي إلى نسيم الصبا ، الحاملة لرياض الربا ، ووفود النسيم ، المتحملة بالتكريم والتعظيم ، ورسل الأصائل ، المتضوعة بنشر الخمائل ، ما يزري بنور الرياض ، وتغازل المقل المراض ، أرق من الدموع ، في الربوع ، وألعب من الراح ، بالعقول والأرواح ، وأشهى من الأمان ، في الزمان ، ووفاء الاخوان ، وألذ من عناق أهل الأشتياق ، بعد الفراق ، وأعذب من الرحيق ، على الريق ، وأحلى من الاقبال ، ببلوغ الآمال ، وأحب من الأتحاف ، بالأسعاف ، وأهنأ من الورود ، على حياض الوعود ، وأشفى من الوصال ، وأوفى من طيف الخيال . . . ولكني حيث تنقلت في البلاد ، وهمت في كل واد ، من أقطار السودان ، القاصي منها والداني ، واعتسفت طرقها[1] ، وشسوعة أسواقها ، حيثما ذكره الأستاذ في الوقائع ، وجنيته من ثمرها اليانع ، التزمت أن أذكر بوجه الاختصار ، ما يتذكر به أولو الأبصار ، وعسى أن تنفق عنده بضاعتي المزجاة ، وأفوز ببركة دعائه بطريق النجاة ، فأقول معتمداً على الله ، وماتوفيقي إلا بالله ... « قد اقتعدنا غوارب الأقتاد ، وجبنا الصخور والأوتاد ، مسئدين[1] في المهامه والقفار ، مستندين الى أعواد الأكوار ، مصطحبين ما يفت في عضد الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، إلى أن وصلنا الى بندر الخرطوم ، فكانت المحفوفة بالقذى ، المحروسة بالأذى ، لأنها القرية الظالم أهلها ، المستحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الأسماء والصفات ، التي ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الست الجهات ، الى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث بالسعير ، في أوقات الزمهرير ، فهي بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، كأول يوم الحساب . »

بلاد لا يجين من رعاها ولا حسن بأهليها اليسار

إذا لبس الدروع ليوم بؤس فأحسن مالبست لها الفرار

قلت مما اتفق لي نظمه في بلاد السودان وأهلها من جملة أبيات هذا البيت :

قوم تخيلتهم جاناً لرؤيتهم وقلت إن خديوينا سليمان

فلو مكثت غير بعيد ، واجتلبت خيل المعتصم والوليد ، واستمديت بذي القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين . ونشرت أبا مسلم الخراساني ، وخرجت في رايات السفياني ، وبعثت بالرياح السوافي ، ورميت بثالثة الأثافي ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت في جنود صفين ، وقاتلت إلى يوم الدين ، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ، فانا كنا في مصادمة الأمطار ، ومزاحمة الأقدار . . . . . »

وبعد ، فهذه صورة من أسلوب الشاعر المجيد ابراهيم بك مرزوق المصري في الشعر والنثر ، أعرضها على قراء الرسالة علها تجد من أدبائنا من يولي أمثال هذا الشاعر المجيد ، ما يستحق من ذكر وتخليد

القاهرة صلاح الدين الوداعي

(١) اعتسف طرقها : خبطها على غير هداية .

(١) بات يسئد السير : يديمه .

الحركة الفكرية لشباب العرب

خبا بريق الثقافة العربية بعد أن بلغت أوجها فى القرون الوسطى عقب غارة التتار على البلاد العربية

وقد قال جوستاف لوبون: « إن الكلام على الشعب العربى وتاريخه وتألقه وعظمة مدنيته لهو كلام عن شعب كان أكثر من أضاف الى ميراث المدنية وزاد فى ثروة الانسانية العامة

والمدنية العربية آخر هدية قدمها الشرق الى الغرب وأكبر مدنيات الشرق أهمية ، لأنها نتاج كثير منها ، وقد تركت فى محيط العلم آثاراً لا تمحى »

حتى اذا كان القرن الثامن عشر وهو عهد تقسيم الامبراطورية العربية التى طبقت كل البلاد العربية وآسيا الصغرى والعجم والهندستان ومصر وشمال افريقية وكل أسبانيا تقريباً ، عانت الثقافة العربية عهداً طويلاً من الجمود بله القهقرى

فقد غلّت سيادة الأجانب ملكات الذكاء التى أوتيها العرب ، وقتلت حبهم الشديد للمعرفة ، وأضعفت قوتهم المبدعة ، حتى اذا كان عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى الى إحياء الفكرة العربية وتجديد ثقافتها القديمة . فكانت هذه الحركة الذهنية ، وهى على أشد ما تكون من المضاء فى سوريا ، القبس الأول الذى سطع منه عهد الأحياء العربى الجديد ، مما كان له دوى فى باقى البلاد العربية وصدى عميق فى نفوس الشعب الراسف فى الجهالة والجمود

ولقد واجهت هذه اليقظة الذهنية الحركة السياسية التى يقوم بها فتيان الأتراك من أجل « تتريك » كل العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربية ، وبذلك نشأت وطنيتان متعارضتان : العربية والتركية ، يقود كلا منهما شباب الشعبين المثقفون ، فنجم عن هذا التعارض بينهما حركة عنيفة أدت الى تكوين جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسها شباب الضباط والطلبة الذين تلقوا علومهم فى القسطنطينية مما جعل الجامعات مركزاً لوحدة الشباب وألفته

وصارت وعود الاصلاح التى وعدها الترك لتحسين حال العرب ومن بينها إدخال اللغة العربية فى مدارس الأقاليم هباء ، فلم يتورع الأتراك عن استعمال كل وسيلة للضغط ومقاومة هذه الكتلة العربية المفكرة مما ألجأ معظمها الى النزوح الى مصر التى غدت مثابة للثقافة العربية

ولقد كان من جراء هذا الخطر الأجنبى توثيق عرى الاتحاد بين شباب العرب الذين استشهد منهم طائفة كبيرة على مشانق الأتراك فى سبيل المسألة العربية ومثلهم الأعلى

ولم يكن لدى هذه الشبيبة الى حين قيام الحرب العالمية الا بعض المدارس الحكومية تلقن العلوم باللغة التركية وغير المدارس الأولية الخاصة لتتاقى فيها لغتها وآدابها . وأما العلوم العالية فلم يكن هناك سبيل اليها إلا القسطنطينية أو أوروبا أو الأزهر

ولما كانت الدراسة العالية غير ميسورة إذن إلا للموسرين ، والحكومة التركية لا تكترث لمصير الشباب العربى اضطر هؤلاء بمواردهم الخاصة الى الخروج من هوة الجهل التى ألقوا فيها عمداً حتى يسلس قيادهم ويسهل إخضاعهم ، إذ كانت سياسة الأتراك نحو العرب تركهم ضُلالا فى ظلام الجهل

وفى خلال سنى الحرب العصيبة قاد الشباب العربى حركة العصيان ضد المستعمر وانحازوا الى الحلفاء الذين وعدوهم باستقلال البلاد بعد النصر ، فهجر شباب الضباط والطلبة كلياتهم واستبدلوا بأقلامهم وكتبهم البنادق لانقاذ ثقافتهم ونصرة حقهم بالمهج والدماء

ولشد ما كانت دهشة العرب بعد الحرب ! أمّلوا من الحلفاء استقلال بلادهم بالوعود المأخوذة فاذا بهم يقسمونها الى سوريا وفلسطين والعراق ، لتكون تحت انتداب انجلترا وفرنسا ، دون أن يكون لرغبات العرب ومصالحهم حساب ، واذا بالعرب يقاسون بعد الحرب كما قاسوا قبلها عنت الحكم الأجنبى وظلمه ، وكان لهذا التقسيم السياسى أوخم العواقب فى تكوين العقلية العربية للجيل العربى بعد الحرب ، فان الطرق التعليمية المختلطة التى تمارس فى هذه البلاد ترمى الى تطورات متنافرة وعقليات متعارضة لتكسر من حدة الثقافة العربية والوحدة الوطنية مما عانت منه البلاد كثيراً ولا سيما سورية

ثم كان من توزيع التعليم بين مدارس الحكومة الرسمية

والمدارس الأجنبية الخاصـة ، كمدارس الفرير ، والفرنسيسكان والجزويت ، والاتحاد الاسرائيلي ، والمدارس الأمريكية ، وجميعها لاتخضع لأية رقابة ، ومن تباين الطرق التعليمية المختلفة فيها ، والتنافس القوى الأعمى بينها ، شر النتائج مما لم يكن يقع غبنه وغرمه إلا على الشباب العربى وحـــده ، فأفسدت الاتجاهات المختلفة والأهواء المتباينة والمؤثرات المتعددة روح الشباب ، وباعدت بين بعضهم وبعض فأصبحوا كأنهم غرباء لا يجمع بينهم تفاهم ولا تناسق ، فترددوا بذلك فى عذاب أدبى مروع ، وفوضى فكرية فظيعـة ، وجهلوا أو لم يعرفوا إلا لماماً أدبهم الوطني وتاريخ أسلافهم الباهر .

وإن الشبيبة التى لا تتغذى ثقافتها الوطنية بالاعجاب بالماضى والزهو بالاسلاف ، لا يمكن أن تتعاون وتعمل فى سبيل رفعة الوطن ، فلقد لاحظنا أن طلبة مدارس الارساليات مثلاً وجلهم من المسيحيين قد خلوا تماماً من الوطنية وحل مكانها التعصب الدينى ، وهذه حالة نفسية تساعدهم على قبول الاستعمار الأجنبى وتباعد بينهم وبين إخوانهم المسلمين .

على أن من الحوادث السعيدة الجديرة بالذكر أن نخبة من مفكرى المسيحيين قد ألقوا منذ سنين نير الرق الأدبى ، وبرئوا من الريبة التى خامرت النفوس ومدوا يد المودة الى إخوانهم المسلمين .

أما تنظيم المدارس الحكومية فقد تم وفقاً للنظام الانجليزى فى فلسطين والعراق ، والنظام الفرنسى فى سوريا ، دون أن يتفق مع حاجات البلاد .

وقد أنشأت هذه الحالة مسألة غاية فى الدقة والخطورة ، وهى مسألة توحيد التعليم القائم على الثقافة الوطنية ، وتحقيق هـذه السياسـة التعليمية هو الوسيلة الوحيدة السريعة لانضاج ذكاء الشباب العربى وتحقيق الوحدة مهما كان وسطها أو دينها . فتوحيد التعليم ينتج وحدة الفهم والتفكير والارادة ، وهى العوامل الثلاثة الأساسية اللازمة لتخلق فى الشباب قوة التعاون على توحيد الجهود وإنهاض البلاد مادياً وأدبياً .

ولقد اشتدت الضرورة الى وحدة التعليم بازدياد عدد الشباب المتعطش للدراسة ، فان عدد المقبلين على التعليم ازداد عقب الحرب كثيراً من الذكور والأناث على السواء . ومع ذلك فان المدارس الرسمية أضيق من أن تسع الطلاب ، مع أنه ليس للبلاد العربية مصروفات حربية ، وميزانيتها تسمح بفتح مدارس جديدة وعلى الأخص فى القرى كما تسمح بتحسين المدارس الحالية على وجه السرعة ، وفى نظرنا أن هذا الواجب هو من أول الواجبات الملقاة على عاتق الحلفاء . فلماذا أهمل ؟

ومن جهة أخرى ، فان المتعلمين يعانون الآن أزمة شديدة فى جميع البلاد العربية لما يصادفونه من العقبات فى المهن الحرة ، إذ لا يجدون بعد سنين طويلة من الدراسـة الشاقة فى أوربا أو فى الوطن مايحتاجونه من عوامل الكمال بعد أن سدت فى وجوههم كل طرق الحياة أو ألقيت فيها العراقيل ، دون أن تفكر أية حـكومة فى معونتهم وتمهيد الطريق لانماء معارفهم وجني ثمار عملهم ، بل أنهم أبعـــدوا عمداً عن وظائف الدولة وجميع الأعمال المتصلة بها تقريباً إذ يشغلها طبعاً رجال الانتداب ، فرنسيون وإنجليز ، وكل ذنبهم أنهم تنكروا لنظام الانتداب ففرت منهم معظم وظائف الأدارة فى بلادهم ، وحرموا من مورد عدل مشروع .

وها كم مثلا لتوضيح ما تقدم : إن بمجلس النواب كثيرين أميين ، على حين أن البلاد تزخر بالمتعلمين الذين لا يبغون إلا أن يخدموا بلادهم بمعارفهم ، وتفسير هذا الأمر أن حكومة الانتداب ترغب فى توطيد مركزها بسهولة

أما الوظائف القليلة التى شغلوها بعد لأى فلا تتناسب مع مستوى تعليمهم ، والحاجة هى التى أرغمتهم على قبول وظائف أبعدتهم تماماً عما تخصصوا له ، ولطالما خضعوا لرؤساء من رجال الانتداب لا يحملون أية درجة جامعية

وكذلك كانوا فى ميادين الحياة الأخرى ، تميز الأجانب عليهم وارتفعوا على أكتافهم بفضل سلطات الاحتلال

ولا ينبغى أن ننسى أن بالبلاد العربية أراضى شاسعة ما تزال بكراً كان يمكن أن تقوم بها مشروعات زراعية وصناعية فتشغل كل هذه الطبقة العاطلة

ولقد كان لهذه الأزمة الفكرية أثر نفسى سيئ فى الشباب فألقوا نفوسهم دون وعى فى أكثر الدراسات قدرة على تأمين مكسب متواضع سريع مما أدى الى وقف النضوج الذهني وقتل الطموح

وأحس الجميع بهذه الأدوار المادية والفوضى الذهنية المنتشرة فاذا أضفنا الى هذه الحالة المعنوية ما يعانيه الشباب من الاذلال والامتهان المستمرين فهمنا بجلاء سبب جنوحه عن غرضه الأصلى بالنسبة له ولبلاده واندفاعه بحرارة وحماسة نحو السياسة لكفاح الاستعمار الأجنبي الذى سبب كل هذه الأدواء ، وهو لم يكن قد أدرك الا بعد سنين طويلة من الألم أن حاله تزداد سوءاً ، وأن بلاده تشرف على الهلاك ، وأن الضرر لابد أن يقتلع من أساسه ، لكنه ازاء الصعوبات الحاضرة والانقلابات الاجتماعية المتوالية ظل مغلولا محروماً من كل وسائل الكفاح ، فالحاضر يفلت منه إذ لا يعاونه نظام البلاد الاقتصادى والسياسى ، والمستقبل لا يمثل له الا نذيراً من الابهام والقلق المخيف

ولطالما شل المستعمرون المتعاقبون على البلاد الحركة الفكرية فيها فقاست منهم الأمرين

واليوم قد نهضت هـذه الحركة برغم كل القيود ، وأحس الشباب الذى يقاسى شر هذه الأدواء هذه الحاجة وترسم ذلك المثل ، فهبت ريح من الوطنية الحارة تقوض كل الحواجز الزائفة التى وضعتها القوى الأجنبية ، وتدعم أواصر هذا الشباب الذى وحد بينه التاريخ والعادات واللغة

وإن هذه الوطنية لتتغلغل اليوم بقوة فى الطبقات الدنيا من هذا الشعب الذى قوته ذكريات ضحايا الحكم التركى ونظام الانتداب ودفعته لانقاذ ثقافته وحريته

وقد بدت فى هذه الأيام نفسية عجيبة فى روح هذا الشعب ، هى التعطش لتعليم الأبناء حتى يصبحوا قادرين على نيل الاستقلال

وتتجه الحركة الفكرية بالشباب العربى نحو إحياء مجد اورشليم وبغداد القديم من الوجهة الذهنية والسياسية ، وستستعين فى ثقافتها بكل العوامل الضرورية لارتقائها روحياً وسياسياً ؟

(آسيا الفتاة) أ . الجابى

فصول مدرسية فى الأدب الدرامى

٢ ـ الرواية المسرحية

فى التاريخ والفن

بقـــلم أحمد حسن الزيات

صفات العمل

من صفات العمل الأساسية الوحدة ، والسرعة ، وتوجيه الأثر الى الذهن

فوحدة العمل هى اتحاد الأجزاء المختلفة التى يتركب منها العمل الروائى على إيجاد حادث واحد أو منعه . ولا يتحقق ذلك إلا بحصر الأهتمام كله فى بطل الرواية ، وجعل هذا البطل فى خطر واحد لا يختلف من ابتداء التمثيل الى انتهائه . لأن الخطر اذا زال انتهى العمل ، والبطل اذا وقع فى خطر غير الأول ابتدأ بوقوعه فيه عمل آخر . على أن العمل قد يكون مركباً متشعباً تملؤه التغيرات وتموقه المفاجآت ولا يؤثر شىء من ذلك فى وحدته . إذ يكفى أن تكون هذه التفصيلات وتلك الاعتراضات مسوقة الى غرض واحد ، موصلة الى نتيجة واحدة . وقد يتسامحون أحياناً فى تطبيق شرط الوحدة ، فيكتفون فى تحققه بأن يتحد الخلق الفعال فى الرواية ، فيجيزون أن تتنوع المواقف وتتعدد الحوادث مادامت تدور كلها حول خلق واحد تحلله وتفصله

الوحدات الثلاث

ولقد كان القدماء من أشياع المذهب الاتباعى (Classique) فى فرنسا أثناء القرن السابع عشر يشترطون فى العمل غير هذه الوحدة وحدتين أخريين : هما وحدة المكان ، ووحدة الزمان ، ويسمون ذلك قانون الوحدات الثلاث ، وظلوا يطبقونه فى غير لين ولا هوادة حتى ظهر المذهب الأبتـداعى (Romantique) فى صدر القرن التاسع عشر فهاجم هذا القانون فيما هاجم من قوانين القدماء . وكان من أثر هذا النضال المنيف بين أنصار المذهبين أن تجوز الأدباء فى تطبيقه ، وأغضوا النظر قليلاً عن تحقيقه ،

فذهب ما يشينه من تكلف وتعسف ، وبقى ما يزينـــه من دقة وتحديد . فماذا كانوا يريدون بوحدتى المكان والزمان ؟ كانوا يريدون بوحدة المكان أن يفرض وقوع العمل كله فى مكان واحد لا يتعداه ، فاذا وقع فى مدينة أو معسكر أو طابق بيت ظل ذلك المنظر واحداً فى كل فصل من فصول الرواية من بدء التمثيل الى ختامه . وإن اقتضى الحال أن يعمل أحد الأشخاص عملاً يحتاج الى نقلة أو رحلة عمله خارج المسرح ثم نبأ به الشاهدين فى وقته المناسب . وكانوا يريدون بوحدة الزمان ألاّ يستغرق العمل الروائى أكثر من أربع وعشرين أو ست وثلاثين ساعة . وكان أرسطاليس يحتم ألا يتجاوز هذا الزمن دورة الشمس . وعلتهم فى اشتراط هذه الوحدات الثلاث مجاراة السلف من الأغريق فى سلوك هذه الطريقة ، والمحافظة على الأمكانية بمقاربة الحقيقة ؛ فان الذوق السليم يقتضى أن ما يمثل فى ثلاث ساعات أو أربع يكون قد حدث حقيقة أو فرضاً فى زمن يسير ومكان واحد . ولكن المحدثين يقولون لماذا تستطيع المخيلة أن تتصور الحادث الذى أتت عليه القرون حاضراً ، ولا تستطيع أن تتعقب الحادث من مكان الى آخر ؟ واذا قبلت مخيلاتنا أن يمثل لها فى ساعة أو ساعتين ما لا يحصل إلا فى يوم وليلة ، فكيف ترفض أن يمتد العمل الى ما وراء ذلك ؟

الواقع أن الكتاب يتوسعون فى هذه القاعدة حتى القدماء منهم ما داموا محتفظين بالامكانية ووحدة الجاذبية . وقد أصبح اليوم تغيير المكان وتطويل الزمان من الأمور الميسورة على المسرح الحديث ، فعالجوا الأول بارخاء الستار هنيهة ريثما ينتقل الممثلون الى مكان آخر — والستار ميزة لم تكن لمسرح القدماء من قبل — وعالجوا الثانى بتقسيم الرواية الى فصول يفرضون مرور الزمن الذى يريدونه فى الفترات القصيرة التى تتخللها . على أن هذا الزمن وإن يكن غير محدود لا ينبغى أن يطول حتى يخرج عن حدود الامكان ، فلا يجوز مثلاً أن يكون البطل صغيراً فى الفصل الأول ثم يدركه المشيب فى الفصل الأخير .

أما السرعة فيجب أن يكون العمل فى الرواية أسرع منه فى الملحمة ، لأن الملحمة مسرحها الطبيعة ، ومرماها ذهن القارئ ، فهى تحتمل من التطويل والتفصيل والاستطراد والوصف ما لا تحتمله الرواية لضيق مسرحها وقرب مداها . فهى لا بد أن تبدأ فى عنفوان العمل وعلى مقربة من الحل ، لأن طبيعتها من قوة الحركة وشدة الاندفاع ، وما تحدثه فى نفس الشاهد من شدة القلق وقوة الانجذاب ، تأبى الأسراف فى خلق الظروف وابتكار الوسائل ، فلا تسيغها إلا بقدر الحاجة الملزمة . فالرواية ولا سيما المأساة ، سيل يقطع السدود ويقتحم الحواجز ، ولكن الملحمة نهر فياض يتحدر هادئاً طليقاً الى مصبه ، فيطول مجراه بكثرة منعطفاته وتعدد محانيه . واذا امتازت الملحمة بالتنوع والغزارة والفخامة ، امتازت المأساة بالسرعة والتأثير والحرارة .

بقيت الصفة الثالثة وهى توجيه الأثر الى الذهن لا الى الحواس ، لأن المسرح اذا غلّب التأثير فى الجسم على التأثير فى الفكر كان أقرب الى الملعب (Cirque) وهو مظهر العجائب البدنية من الحيوان المروض والانسان المرن ، وكان جزاءه أن يفقد سلطانه ومكانه فى قليل من الزمن . وعلة ذلك أن التأثير المادى محدود متشابه ، فلا يلبث الناس أن ترى أعينهم مداه وتتعود آذانهم صداه ، ويدركوا أن ما قرع أسماعهم أول مرة من أصوات الألم المروعة ، وأنات الاحتضار الموجعة ، انما هو صوت واحد متكرر الأثر ، ويؤول الأمر بالشاهدين والمؤلفين حتماً الى أن يفقدوا التأثر منه والتأثير به لتشابه موضوعاته وتكرر مؤثراته . من أجل ذلك لا ترى على المسرح تفاصيل الحوادث المرعبة كالقتل مثلاً ، بل يفرض حدوثها فى ظاهره (Coulisse) ، ثم تلقى الى الشاهد على لسان شخص من أشخاص الرواية . ومسرح الأغريق نموذج المسارح فى هذه السبيل . أما المسرح الرومانى فقد دعاه غلظ الطبع وجفاء الشعور الى أن يسمع النظارة أنين مصارعى الثيران وهم فى سياق الموت ، ويريهم دماء الضحايا وأشلاء القتلى مبعثرة على أرضه ، فتأخر الفن الروائى عند الرومان من جراء ذلك كثيراً

(الزيات)

يتبع

في الأدب العربي

كثير عزة

مدى التطور في شعره ، خَلْقه وخُلُقه ، شيعي وشاعر الأمويين ، عشقه

بقلم عبد الحليم عباسي

يعجبك في الأدب العربي القديم ظاهرة جديرة بالبحث العميق ، وهي شيوع هذا الأدب الغنائي . فالشعر الجاهلي الذي وصل الينا لا يتعدى هذا النوع في الأعم ، فهو غنائي في لفظه ، وفي موضوعه ، بينا تجده في الأمم ذوات الأدب لم يسم الى هذا الضرب إلا بعد قيام الدولة وازدهار النهضة . . . فالشعر اليوناني لم يصل الى هذه المرتبة إلا بعد أن اشتد أمرهم وعظم سلطانهم ، فأخذوا يقيمون المستعمرات على شواطئ البحرين ، وكذلك الشأن في الأمم الأخرى ، فهو عند الرومان مثلاً لم تقع عليه قرائح الشعراء إلا بعد قيام الدولة ببضعة قرون ، وهو في الأمم الأوربية الحاضرة كذلك قد ساوق النهضات وقيام الدول . ويجيء على الضد من ذلك في الأدب العربي ، فقد نهض وما برح العرب يهيمون في أوديتهم القاحلة ، لا يلم شعثهم بأس الدولة ، ولا يحكم أمرهم شرف الملك ؛ ولعل البحث في علة هذا يعود الى ضرورة البحث في خصائص الخيالين : الآرى والسامي ، والى تفهم المزاج العربي الأصيل ، مما نرجئه الى وقت يكون أكثر ملاءمة من هذا الوقت الذي نخصصه للبحث عن كثير ، وحسبنا هنا أن نشير الى ذلك ، وأن نشير الى أن من هذا الشعر الغنائي ما يتصل بكل نفس ، ويخلد على وجه الدهر ، وهو الشعر الذي ينبعث من نفس الشاعر ، لا يبتغي من ورائه غرضا ، وإنما يقوله إرضاء لرغبة الجمال والفن في نفسه ، ومنه الغزل والحنين ، وهو شائع في الأدب العربي شيوعاً كبيراً ، استطاع معه أن يلون خيالهم ، وأساليب تفكيرهم ، وأن يجعل الرقة في الحديث والحوار ، والبكاء على الدمن من أظهر صفات العرب . . ومن هؤلاء الشعراء الذين زادوا في ذخيرة الأدب الوجداني كُثيِّر بن أبي جمعة .

مدى التطور في شعره

كانت الحقبة التي أعقبت عاصفة الفتح الاسلامي المجتاحة ، والتي دوخت بلاد فارس ، وأدخلت في حوزة المسلمين كثيراً من الأيالات الرومية ، حقبة فيها شيء من الهدوء والاستقرار على الأقل — في الأطراف النائية عن مقر الملك الأموي ، وكان من ذلك ، ومن هذا الرخاء الذي أخذ يمتد بما هيأ له الفتح الاسلامي من فيء يفيض عن الحاجة ، أضف إلى هذا ما اقتضته سياسة الملك من ضرورة مشايعة الشعر والأخذ بناصره أن نهض الشعر ، وازدهر سلطانه ، وقامت له مدارس كثيرة من أشهرها هذه المدرسة التي لم يقتصر التطور على تغيير أسلوبها اللفظي ، وانما تناول مع القالب الشعري الفكرة ، وكُثيِّر أقرب إلى هذه المدرسة منه إلى أية مدرسة أخرى . . .

وقد غايرت هذه المدرسة الأنماط الشعرية المتواضع عليها من القديم ، فقد أنشأت القصائد يقصدبها النسيب فحسب ، ويقصدبها موضوعات غير هذه المعروفة قديماً من الهجو والمدح والاستجداء .

وكُثيِّر وإن يكن من هذه المدرسة الا أن العوامل والمؤثرات التي أثرت في نفوس أصحابها لم تكن عميقة الأثر في نفسه ، فقد مدح وهجا ، وكل ذلك بلفظ شيق سمح صقلته الحضارة الأسلامية التي بدأت تتفتح ، وباعدت بينه وبين وعورة الأسلوب الجاهلي ، وليس لذلك من تعليل غير أن النفسية العربية لم تتطور بعد التطور كله ، ولم يحن لهذا التمازج الهين مع الثقافات والأمم الذي أخذ يظهر ، ان يبدو عنيفاً . . كما ان كثيراً لم يك له هذا الحسب الباذخ والغناء الفاضح ، الذي للعرجي وابن أبي ربيعة ، فالزمن يقسره على المدح ويضطره الى الهجاء ، ليأخذ الجوائز والهبات ، ويستفيد من موالاة هذه العصبيات التي أراد القابضون على مقاليد الأمر انبعاثها حية ، ليطرد لهم الملك . . بعد أن جاهد الاسلام في اخفائها زمناً طويلاً . . .

ولكنه إذ يمدح يجانب بعض الشيء هذا المثل الذي يحتذيه شعراء العرب ، وهو النمط الجاهلي . . فهو يضيف الى رقته شيئاً من هذه الصور الوضاءة ، التي بثتها عيشة الهدوء والاستقرار .

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى نافعاً بكت فبكى مما شجاها قطينها

وهو يجيد بصفة خاصة مدح الملوك إجادة منقطعة النظير ، حازت إعجاب معاصريه حتى كانوا يرون من أبرز صفاته القدرة على ذلك . فلا غرو بعد هذا أن كان أثراً عند ملوك بنى أمية يعلمون أبناءهم شعره :

خَلقه وخُلقه

عن الوقاصى قالت : رأيت كثيراً فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب ، وقد تشاجر هو والشاعر الحزين ، فقام كثير وحمل على الحزين ولكزه ، فحمله الحزين فى يده مثل الكرة ، ورمى به الأرض . . وهو الى ذلك دميم أحمر ، أما أخلاقه فكان شديد التيه والكبر ، كثير العجب بنفسه ، تقع من ذلك على نوادر مضحكة . فمن ذلك أن بعضاً من فتيان قريش كانوا يتحدثون على مسمع منه ، بأن كثيراً من تيهه لا يلتفت الى ورائه ، ثم يتبعونه بمن يسحب رداءه فلا يلتفت أبداً ، وقد عُرف عنه أنه أحمق وفيه غفلة ، ولسنا نشك فى ذلك ، ولكننا نشك فى عامة هذه الروايات التى تقص علينا نوادر حمقه ، والتى توصله من الغفلة والانتكاس فى العقل حداً يصعب تصوره ، فى مثل من هو مثله فى قوة شاعريته .. فمن ذلك أنه قال لعمته مرة : أتدرين من أنا ؟ فقالت : نعم ، أنت فلان بن فلان ، فقال : لا ، وإنما أنا يونس بن متى !... وقال لأصحابه وهو فى مأدبة الموت : ستروننى بعد أربعين ليلة طالعاً على فرس عتيق من شعاب هذا الوادى . . وقد كان له الى ذلك آراء فى الرجعة والتناسخ ، وهذه من العوامل التى جنت عليه فى عامة هذه الروايات ، فما عرف الناس منه هذا حتى راحوا يختلقون ويضيفون اليه شتى الروايات التى تؤيد مزاعمهم انتقاماً من تيهه وكبره ، ثم يتعاقب الزمن ، فتصبح هذه المزاعم حقائق ثابتة يتناولها الكتاب دون ما نظر ولا تمحيص ، وليس لدينا مايقوى هذا الشك فى صدق هذه الروايات ، غير ما نلمحه فى سيرة كثير من أنه كان محاطاً بزمرة حبب اليها التندر والفكاهة ، ومن أولى بهما من هذا القزم الذاهب بنفسه . . من ذلك أن أبا هاشم عبد الله محمد بن على وضع عليه من يأتيه بأخباره ، فكان يلقاه فيحدثه بما كان منه فى خلال يومه ، وكثير يعجب من هذا ؛ حتى جاءه يوماً بكلام جرى بينه وبين آخر ، وقال له : لقد جرى منك اليوم كيت وكيت . . . فقال كثير : أشهد أنك رسول الله . . .

فمن هنا نرى مبلغ ولوع الناس بالعبث به حتى كانوا يرصدون له بمن كان يأتيهم بأنبائه ، لا يسقط منها حرفاً . .

وزاد فى الطين بلة أنه كان دعى النسب الى قريش ، وأكثر الرواة يلحقونه بخزاعة ، ولكنه هو يأبى إلا أن يكون من كنانة قريش ، ويأبى إلا أن يدل بهذا النسب المختلق على القرشيين أنفسهم ، وإذا عوتب فى ذلك وأعوزته الحجة قال : لدعىُّ النسب فى قريش خير من صريحه فى غيرها من القبائل . ومن هنا ندرك مبلغ ما انطوت عليه نفسه من حماقة ، وما ركب فيه من تبجح وادعاء .

على أننا إذا شككنا فى كثرة هذه الروايات التى تمثل حمقه وغفلته ، فلا نشك فى أنه كان دميماً الى حد البشاعة ، وكان تياهاً بنفسه ، وهذا ما يكفى لصد الناس عنه واستثقالهم لظله .

شيعىٌّ وشاعر الدولة

من المعروف عن كثيّر انه كان متشيعاً مغالياً فى التشيع ، وكان ملوك بنى أمية يعلمون ذلك ، ولكنهم يحسنون مع هذا وفادته ، بل يذهبون الى أبعد من هذا فى إكرامه ، فينعتونه بشاعر الدولة ، وتعلل الروايات الاسلامية هذا بلطف مدخل كثير وجلاله فى أعين الخلفاء ، وهى قولة ليس فيها سداد منطق ولا عمق بحث . . فأين لطف المدخل عند هذا البغيض الروح ؟ وأين هذا الجلال عند من لا يزيد طوله على ثلاثة أشبار ومن هو دعى النسب فى قريش ؟ . . ولا سيما إذا علمنا بأن صدر الدولة الأموية لم يكن يتسع للشيعة ، فكم أخذتهم بأساليب العنف والقوة ، وكم صرعت من جلة الناس ، وما حوادث زياد بن سمية وتنقيبه عنهم تحت كل حجر ببعيدة المدى ، بل هذا الحجاج فى العراق ، يقتفى آثارهم ويأخذهم هبراً بالسيف وبعجاً بالرماح .

إذن فلابدّ من أن يكون فى الأمر شىء غير هذا الجلال المزعوم ، ولطف المدخل الموهوم ، مكّن لكثيّر من أن يحتمله الأمويون ، وأن يستحلفه الخلفاء فى مجالسهم بعلى ؛ إذا ما أرادوا

أن يصدقهم بخبر دون أن يروا فى ذلك غضاضة .

ولنبحث بإيجـــاز فى طبيعة هـذا التشيع الذى كان يعتنقه كثيّر فلعل فيه العلة ، وما تخال إلا ذلك . . .

نشأت الشيعية فكرة بسيطة ، تتلخص فى أن علياً وأحفاده أحق بالخلافة من كل من عداهم ، ثم أخذت تتطور هذه الفكرة حتى أصبح الشيعيون فى هذه الفترة التى نكتب عنها فرقا متباينة لا يستهان بها . . .

وأشهر هذه الفرق فرقتا الزيدية والأمامية ، ومن هـذه الأخيرة تتشعب فرق متعددة يختلفون فى أشخاص الأئمة ، منها هذه التى تنتظر خروج محمد بن الحنفية . وقد كان من أتباعها شاعرنا كثيّر ، فهو يمدح هذا الامام وينعت أحفاد على بالأنبياء الصغار ، وليس فى طبيعة هذا التشيع ما يضير الأمويين إذ هو لا يتعرض للقضية الكبرى وهى قضية الملك والخلافة ، وأن أحفاد على أحق بها من آل مروان ، فقد ألهته هذه الأمور أو ألهى بها نفسه — لا ندرى — عن القضية الأساسية الكبرى كما أسلفنا .

أقر الله عينى إذ دعانى   أمين الله يلطفُ بالسؤال
وأثنى فى هواى علىّ خيراً   ويسأل عن بنى وكيف حالى
هو المهـدى خبرناه حق   أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

***

وسبط لا تراه العين حتى   يقود الخيل يقـدمها اللواء
تَغَيَّب لا يرى عنهم زماناً   برضوى عنـده عسل وماء

فهل ترى فى هذا النوع من التشيع ضيراً على الأمويين ؟ بل نزعم أكثر من هذا وهو أن الأمويين ما كانوا ليروا حرجاً فى أن يشيع هذا النوع ، ليمدوا فى أسباب الخلف بين فرق الشيعة من جهة ، وليلهوهم من جهة ثانية ، وما عليهم ان قعدت بهم هممهم ، ينتظرون هذا الذى يقود الخيل يقدمها اللواء

فلا جرم أن لم يأبهوا لتشيع كثير ، وما عليهم وهو يجيد مدح الملوك ، وقد تغلغل حب القرشيين فى صميمه ، يحب من والاهم ، ويعادى من عاداهم ، ان اتخذوه شاعرهم يقـدمونه ويروون شعره ، وهو بعـد الشاعر البعيد الصيت ، المستفيض الشهرة .

عشقه

يشك بعض الرواة ، فى أن كثيرا كان صادق العشق لعزة ، ويدللون على ذلك بروايات نرى فيها أثر الاختلاق والتكلف ، فمن ذلك أن كثيرا تبع مرة بثينة وقال لها متغزلاً :

رمتنى على عمـد بثينة بعـدما   تولى شـبابى وارجحن شبابها

فالتفت فرأى وراءه عزة فاستدرك وقال :

ولـكنما ترمين نفساً مريضة   لعزة منها صفوها ولبابهـا

وهكذا دواليك من هذه المزاعم التى يلحظ فيها الانسان أثر الصنعة ، ولا نعرف من أين غلب على الرواة هذا الظن ، لعلهم ظنوه قلد جميلا فى غزله ، دون أن يعرف قلبه هذا الحب المبرح . . والذى نعتقده ونحن ندرس شعره الذى تركه فى عزة ، فنرى اللوعة وبرح الهـوى ووقدة العاطفة ، أنه أحب عزة حباً قوياً جارفاً كما يقولون ، وكان من أثر هـذا الحب أن زفر بهذا الشعر الذى يحمل نجيع القلب ، وذوب العاطفة ؛ وهاك ما قاله فيها لما أخرجت الى مصر ، ولك أن تحكم :

وقال خليلى مالهـا إذ لقيتها   غداة السنا فيها عليك وجوم
فقلت له إن المودة بيننـا   على غير فحش والصفاء قديم
وإنى وإن أعرضت عنها تجلداً   على العهـد فيما بيننـا لمقيم
وإن زماناً فرق الدهر بيننا   وبينكم فى صرفه لمشوم

ولـكن أنى لهذا الحب أن يدوم وقد فترت داوعيه . فمن الرواة من يشك فى أن كثيرا رأى عزة واجتمع بها ، والذى صح عندنا أنه رآها ، ولـكن فى مرات معدودة ، وأنها لم تـكن تبادله الحب قوياً كحب بثينة لجميل بن معمر ، فمن هنا مال لغيرها وقصد القصائد فى أم الحويرث ، وأخرى اسمها ظلامة ، والمرء إذ يطالع شعره فى هاتين ، يراه بارد العاطفة ركيك الصنعة .

تقطع من ظلامة الوصل أجمع   أخيراً على أن لم يك الوصل ينفع

وقس هذا بهذين البيتين يقولها فى عزة :

وأجمع هجراناً لأسماء إن دنت   بها الدار لا من زهدة فى وصالها
فان شحطت يوماً بكيت وإن دنت   تذللت واستكثرتها باعتزالها

وأخيراً فشعره فى عزة هو الذى زاد فى ذخـيرة الأدب الوجدانى ، ومحال أن يكون مجرد صياغة وصناعة

عمان   عبد الحليم عباسى

من طرائف الشعر

الى شبان المسلمين

للشاعر الحاج محمد الهراوى

قل للشباب المسلمين تحيةً   من مسلم ثبت على إيمانه
ويزيده فى الله حُسنَ عقيدة   ما جرَّه الالحادُ من خسرانه
الغربُ مجلبة الخسار جميعهِ   والشرقُ مفتتنٌ به عن شأنه
متوددٌ ، والغربُ لم يأبه له   لا فى مودته ولا شنآنه
ماذا من الغربىّ فى إحسانه   والشر غلابٌ على إحسانه
ما زال يرمى الشرقَ من نيرانه   حتى تردَّى فى لظَى نيرانه
فى كل يوم معقدٌ لِلجانه   والمشكلاتُ تئزُّ تحت لجانه
لو أخلص الغربىُّ فى نيَّاته   ما ثارت النيرانُ من بركانه
ما باله ، والعدل من ألحانه   تبكى العدالةُ فى صدَى ألحانه
لو يحفظُ الشرقىُّ طابعَ قومه   لم يطوِهِ الغربىُّ فى سلطانه
أو كان يزهدُ فى الحياةِ لعزّه   ما هان بعد العزّ فى أوطانه
أو كان متبعاً لآى كتابه   لمَضَى ، وهذا الدهرُ طوعَ بنانه
لكن سَبَتْهُ حضارةٌ غربيةٌ   ألقى الى مضمارها بعنانه
أين الغزاةُ الفاتحون وأين ما   فتحت سيوفُ الله من بُلدانه
أين السراةُ الخيِّرون وأين ما   شادوا لدينِ اللهِ من بُنيانه
أين البيوتُ العامراتُ بأهلها   سل كلَّ بيتٍ دالَ من سكانه
والأزهرُ المعمورُ أين مكانُه ؟   سل عنه: أين، وأنت فوقَ مكانه
فرِحوا وهم يبنون كليانه   فليفرحوا بالطوب تحت دهانه
من يوم أن نقلوه عن جُدرانه   قد طار سر الله عن جدرانه
فاسأل عن الأحياء من علمائه   والفتيةِ الأطهار من شبانه
المتقينَ اللهَ حقَّ تُقاتهِ   الحافظين لدينهم وكيانه
العاملينَ بشرعه وكتابه   العاملين بروحه وبيانه
خرجوا وحتى الزى لم يبقوا له   ظِلاً لجبته ولا قفطانه

***

مولاى ، ياملكَ البلادِ وذخرَها   وملاذَ هذا الدينِ عند هوانه
مصرٌ بأزهرها القديمِ كما بدا   بالطابع الموروث منذ زمانه
فأعِدْ اليه عهدَه وأستبقِهِ   تدفعْ به الإلحادَ فى عُدوانه
أدعو شبابَ الشرق من أجناسه   وعلى اختلاف الشرق فى أديانه
أدعو لجامعةٍ تضمُّ شتاتَهُ   من صينهِ الأقصى الى تطوانه
إن لم يكن فى الدين جامعة له   كبرى ، ففى آلامه ولسانِهِ
ما بالُنا والغربُ غربٌ دائماً   فى ظِلِّهِ نمضى وتحت ضمانه
فخذوا سبيل الدين فهوَ كفيلكم   ليردَّ سيلَ الغرب عن طُغيانه
والدين للدّنيا وللأخرى معاً   وسعادةُ الدارَيْنِ فى قرآنِهِ

أهذه الأرض ؟

للأستاذ فخرى أبو السعود

مَنْ غازَلَ الرَّوْضَ حتى افترَّ جذلانا
وكان منقبضاً بالأمس غضبانا ؟
ونضَّرَ الزرعَ فاخضرتْ لفائفه   وانبث فى الأرض آكاماً ووديانا
وأخرج الزهر من أقصى منابِتِهِ   فرصَّعَ العُشْبَ أشكالاً وألوانا
وصاح بالريح حتى قرَّ ثائرُها   إلا نسيماً بِعَرْفِ الزَّهر مَلآنا
وكفكفَ الغيثَ فانجابتْ عوارضُه
وكان لا يأتلى هَطْلاً وتهتانا
وقشَّعَ السُّحْبَ عن أفقِ السَّما فبدَا   طَلْقاً وأطلعَ وجهَ الشمس ضَحْيانا
وَرَدَّ غائلَ بَرْدٍ كاد يُهلكنا   عاتٍ وأرسلَ دفئاً منه أحيانا
أهذه الأرضُ مازالت كما عُهِدَتْ   أم بَدَّلَتْها جنودٌ من سليمانا ؟
قد ظلَّ ملتحفاً بالدَّجْنِ محتجباً   حُسْنُ الطبيعة طولَ العام وسنانا
حتى انجلى فبدا من طول لهفتنا   إليه آخذَ بالألباب عُريانا
وللطبيعة حُسْنٌ حيثما سفرتْ   فى الشرق والغرب سابٍ أينما بانا
ليست أقلَّ بأرض الثلج فِتْنتُهُ   منها بِوادٍ يغذِّى النخلَ والبانا
وَدِدْتُ لَمَّا تمشَّى فى الجزيرة لو   يُتاح لى فى حماها الخلدُ أزمانا
عَلِّى أعُبُّ مليًّا مِن مناهلِهِ   ويفتدى القلبُ من رَيّاهُ رَيَّانا
ذَرَعْتُها من جنوب الأرض مبتغيا   شمالها ممعناً فى السير إمعانا
والشمس ترمى شُواظاً من أشعتها   آناً وَيَفْتُرُ عنِّى وَقْدُها آنا

مُقَلْقَلَ الشخصِ تعلو بى غواربُها ... حيناً وتهبط بى الأغوارُ أحيانا
تبدو على الافق الآطامُ مائلةً ... خلف المزارع أسرابا وأُحْدانا
وَقَدْ عَلَتْ بينها الابراجُ راسيةً ... طَوَتْ بموضعها دهراً وحِدْثانا
إذا هَبَطْتُ قُراها أو مدائنَها ... رأيت خيراً وإثراءً وعمرانا
ماجت بمن دَرَجُوا فيها ومن ركبوا ... كالنمل تعمُرُ ألواذاً (١) وكثبانا
وإنْ أوَيْتُ لأحضان الطبيعة لمْ ... ألاقِ أحْنى على الأبناء أحضانا
أهْدَتْ إلىَّ وفوداً من نسائمها ... تترى وظلاً من الأغصان فينانا
قد أمَّنَ العدلُ قُطَّانَا وَسَابلةً ... بها وظَلَّلَ أجوازاً وبلدانا
وَفَاءً للحق شعبٌ فى مَنَاكِبِها ... عَلَى الإباءِ لِوَجْهِ الحقِّ قد دانا

فخرى أبو السعود

(١) ألواذ الجبل : جوانبه وما يطيف به

زفرة

للأستاذ محمد خورشيد

ذكَّرُونى كيفَ أبتسِمُ ... قد طوى عهدَ المنا الألمُ
وشئونى باتَ زاخرها ... بدمِ ابنِ الجنبِ يلتطِمُ
وربيعى للخريفِ حَبَا ... وشَبابى اغتاله الهرَمُ
أشتكى همى فيشمت بى ... زمنٌ أوارُه ظُلَمُ

***

أنا فى ليلِ الشقا همدت ... جذوتى واجتاحنى السَّحَمُ
لم يَشأ ليلى السُّرَى فغفا ... وطلبتُ الفجرَ أعتصِمُ
فذوى فى مهده أملى ... حين زلَّت بالمُنَى القدَمُ

***

فحياتى — والأسى قدرٌ — ... صفحاتٌ كلُّهنَّ دَمُ
حسبونى بينَ مَن وُجِدُوا ... ووجودى — لو دَرَوا — عَدَمُ
زفرةٌ كالجمرِ لاذعةٌ ... سَلَّها من صدرىَ القلمُ

القدس — محمد خورشيد
أستاذ الأدب العربى بالرشيدية الثانوية

خبيئة نفسى

للأديب سيد قطب

خبيئةَ نفسى، قد غفا الكونُ فاسفُرى ... وكونى سميرى، بعد إذ نامَ سُمَّرى
سها الدهرُ والأقدارُ رنَّقها الكرى ... وهوَّمَ فى جوفِ الدُّجى روحُ خيِّرِ
يُطيف على العانين بالعطفِ والرضا ... ويغمرُ بالأغفاء رأسَ المفكرِ
وينتظم الدنيا هدوءاً كأنها ... عوالمُ فى وادي المنى لم تُصوَّرِ
فلا صوتَ إلا خفقةٌ من جوانحٍ ... كما خفقتْ للضوء عينُ المصوِّرِ
ولم يَبقَ من هذى الحياةِ وأهلها ... سوى طيفها السَّاري بوادي التذكرِ

***

خبيئةَ نفسى من عهود سحيقةٍ ... ومن جوف آبادٍ مضت قبل مولدى!
أمسُّكِ فى أغوار نفسى ولا أرى ... محيَّاكِ إلا كالخيال المشرد
علمتُكِ حتى أنتِ مِنِّىَ بَضْعةٌ ... جهلتُكِ حتى أنتِ فى غير مشهدِ!
ويا طالما أخلفتِ لى كلَّ موعدٍ ... ويا طالما ألقاكِ فى غير موعدِ!
عجبتُ فكمْ مِنْ نفرةٍ تنفرينها ... على فرطِ ما تبدينه من توددِ!
حديثُكِ من نفسى قريبٌ وإنما ... إخالُكِ فى وادٍ من التيهِ سرمدِ

***

خبيئةَ نفسى، ما ترى أنت؟ إننى ... أُريدكِ فى جوٍّ من الضوءِ مَعلَمِ
أعنصرُكِ الايمانُ والطهرُ أصلُه ... وإلا إلى الكفرانِ والرجسِ مُنتَمِ
وفى أىِّ وادٍ أنت تسرين خلسةً ... ومن أىِّ عهدٍ فى الجهالاتِ مبهمِ
وكم فيكِ من نصرٍ وكم من هزيمةٍ ... تجاورتا فى حشدكِ المتزحِّمِ
وكم فيكِ من يأسٍ وكم فيكِ مأملٍ ... وكم مِنْ تردٍّ أو وثوبٍ تقحُّمِ
وكم فيكِ من حبٍّ وكم فيكِ بغضةٌ ... ومن رشدِ إلهامٍ إلى خبطِ مظلمِ

***

خبيئةَ نفسى فى ثناياكِ معرضٌ ... لما لقيتهُ الأرضُ فى الجولانِ
وفيكِ من الآباد سرٌّ وروعةٌ ... وفيكِ صراعاتٌ بكل زمانِ
وفيكِ التقى الانسانُ من عهدِ خلقهِ ... وفيكِ التقى الروحىُّ والحيوانى
وانكِ طِلَّسْمُ الحياة جميعها ... وصورتُها الصغرى بكل مكانِ
أبينى إذن عن ذلك العالم الذى ... تضمَّنتِه من صورةٍ ومعانِ
أبينى أطالعْ فى ثناياكِ ما مضى ... وما هو آتٍ من رؤىً وأمانِ

سيد قطب

٢ – بين الشك والايمان

بيـــرون

للأستاذ خليل هنداوى

تسمع قلبه يخفق ، وتصغى إلى ضميره يهتف ، فتعرف أن الشك قد فتح فى قلبه الذى يريد ألا يحس شيئاً جراحات لم تفقده الحياة ولا يرجى له منها شفاء . «وباطلاً ترتسم الابتسامات على شفتيه ، وباطلاً يتحرى الطرب عن سبيل ينفذ منه اليه فى الليالى التى يثور فيها قلبه» ، ويشبه نفسه بذلك الأكليل الغض ظاهره ، الذاوى باطنه ، وإزاء هذا الشقاء قد نراه ينتفض كالجبار فيقول بلهجة صارمة « ليقل عنى من رآنى حانى الجبين ومن أورثه قلق نفسى ضعفاً »

إن الشاعر لايعاند فى احتمال الشقاء ، ولكنه يريد أن يقابله وهو قوى لاذليل مستكين ، يريد أن يصبر عليه كما يصبر الرجل عند البلاء ، يريد أن يموت كالسراج الذى لاينطفىء حتى يشيع ماحوله بشعلة ساطعة يختم بها حياته ، ولكن هذه الانتفاضات المؤقتة سرعان ماتتلاشى ليبدو وراءها (بيرون) نفسه .

يقول هارولد « إن آلامنا العاصفة تترك وراءها أثراً بعد ذهابها : قليل من شىء يسقط على ذلك القلب فيهزه إلى الابد وقد يكون هذا الشىء نغمة شائعة ، أورنة موسيقية ، أو ذكرى ليلة من ليالى الصيف ، أو ربيع بهى ، أو زهرة أو ريح ، أو البحر الذى يفتح على حين فجأة جراحاتنا »

وراء هذه الخاطرات يكمن بيرون الذى يصف نفسه ونفوس كثيرين مثله ، فهو سئم من الماضى القاتم ، وهو شاك من الحاضر الظالم ، ويائس ناقم من الغد القادم . تقرأ فى أسارير وجهه المتجعد هذه الآيات التى كانت كل همه فى الحياة .

وروح بيرون هل ارتاحت إلى شقائها أو غلب عليها أمل فى غد هو أزهى من الحاضر ؟ وإنما يهمها من ذلك الغد أن تجتمع فيه إلى أحبابها وأصدقائها .

« وما عسى يحول إليه هؤلاء الأحباب المختفون ؟ وهل نراهم بعد أن تواروا فى الثرى ؟ ألا يبقى منهم شىء غير الأسماء المنسية ؟ »

وقف بيرون على قبر صديق له مات فى مقتبل عمره وقال : «هل يمكنني أن أومن أنك أمسيت لاشىء وأنت حى مقيم فى ذاكرتى . أجل ! إننى أعلم بأننا سنجتمع معاً . وهذا الوهم سيملأ فراغ قلبى»

وهكذا نجده لايذكر المستقبل إلا مصحوباً بوهم أو بحلم ، ولكنه وهم خلقته له الحاجة ، فهو لو لم يرغب فى لقاء من مات من أترابه لما خلق هذا الوهم .

وبيرون هو الذى يهتف : « أصدقائى يتهاوون على الثرى من كل جنس ، وأنا سأرسو على الأرض كشجرة منفردة قبل أن أن يغشاها ذبول . يستطيع الرجال الآخرون أن يلوذوا بأهليهم وأنا لا ملجأ لى إلا عواطفى التى لاتريني فى حاضرى وفى غدى إلا الرضاء الأنانى يبقانى حياً بعدهم ، إننى لشقى ! »

وقد يبلغ به اليأس مبلغاً أشد وأقوى فيقول « أيها الانسان ! ترفع عينيك إلى السماء وأنت لاصق بالأرض ، ألا يكفيك أن تعرف من أنت ؟ وهل كان الوجود منحة ثمينة تنعم بها مرة ثانية بعد هذه ؟ وترغب فى التوجه إلى مكان لا أدريه ، جل ماتطلبه أن تستعجل الفرار من هذه الأرض ، والفناء فى السماء »

وفى حالة يأس كتب بيرون هذه الفقرة «الموت ! وا أسفاه ! ذهاب دائماً ! فالى أين ذهبوا ؟ وإلى أين يذهبون ؟ أسأحول إلى العدم الذى كنت فيه قبل حياتى وشقائى الحى ؟ »

وهذه الفقرة الثانية « الحياة تحلق بين عالمين : كالنجمة المعلقة فى حاشية الأفق يكتنفها عالما الظلمة والنور . إن أوقيانوس الزمن الخالد يمشى ويجرف معه (حبيباً خفيفاً) . الحبب القديم يتلاشى والحبب الحديث يتألف منفصلاً من زبد العصور . وخلال ذلك ترى بقايا هذه الممالك تجرفها أمواجه الهاربة »

ولكن هذه الثورة النفسية يتخللها شىء من الهدوء . أوقل هدوء الخضوع للقدر المجهول الذى يعمل دون أن يرى . فيخلق الشاعر من هذا الرضا شيئاً يبعثه على الرجاء فيناجى الموت قائلاً : «أيها الموت القاسى ، قد ملكت منى كل ماتستطيع أن تأخذه : سلبتنى أمى ، ثم صديق ، والآن نزعت منى أسمى من صديق ، ولكننى أنحنى بوقار أمام الله » وإذا بهذا الوقار ينمو فى نفس الشاعر ويوقظ فيه الايمان القديم ويحيى فيه حنيناً إلى السماء ، فيأسف على القيود التى تحول بينه وبين الصعود إلى السماء التى تدعوه إليها بنظراتها الخلابة ، وإذا بشعره تبدو على ديباجته مسحة روحانية صوفية .

قال الكونت (غامبا) : لأول مرة فتحت حديثاً دينياً مع الشاعر بيرون فى نزهة لنا قضيناها على ظهور الجياد بين غابات الصنوبر ، فكانت تلك العزلة باعثة على التأملات . فقال : والنهار مشرق الصفاء « كيف يشك الانسان فى وجود الله على الأرض إذا رفع عينيه الى السماء وخفضها على الأرض ، ثم انحدر بهما الى

نفسه ، أفى استطاعتنا أن نشك فى أن هنالك شيئاً هو أسمى وأبقى من التراب الذى نشأنا منه ؟ . » وهو الذى كتب قبيل وفاته : « يخيل الىّ أن الانسان إذا تأمل فى أعمال الروح لايستطيع أن يجد شكاً فى خلودها ، إننى شئت أن أشك ، ولكن التأمل أبدى لى خطئى . أما هل حالتنا الثانية تشبه حالتنا الحاضرة ؟ فهذا سؤال آخر . أما أن الروح هى خالدة ، فهذا شأن ثابت عندي ثبات فناء الجسد . » ولكن بيرون الذى يؤمن بالحياة الثانيـة نراه لا يؤمن بها على المثل الذى جاءت به الكتب الالـهية ، فهو يجعل من الجنة مستقراً للجميع ، ولا يود أن يحشر فى النار أحـداً .

ويقول فى هذا الموضوع : « إن كل بعث جسدى هو غريب منكر لايقبل به العقل إلا إذا كان المراد منـه إزال العقاب . ولـكن كل عقاب غايته الانتقام من الذنب لا تهذيبه فهو عقاب سيء غير أدبى . والأهواء الانسانية هى التى بدلت — كما يتبادر الى الظن — المذاهب الالـهية . والخلاصة إنه سر عظيم . »

وتراه يطلب الى الدين أن يحقق ما أبت الفلسفة أن تميط عنه اللثام : « ما هى الحقيقة ؟ ومن هو الذى يملك دليلها ؟ الفلسفة ؟ كلا : لأنها تنفى كثيراً من الأشياء ! الدين ؟ بلى . ولـكن أى دين ؟ أما قد حان للالـه أن يحيى إيماننا فيرسل الينا نبياً جديداً . »

وهكذا تتوزع بيرون نوازع مختلفة ، منها ما يدنيـه الى الجحود بعد أن يجهد نفسه فى التنقيب والتفكر ، فلا تصل الى شيء . ومنها ما يصرفه الى الايمان بعد أن تكل عزيمته ، ويأخذ منه الأعياء كل مأخذ . فآياته منها الآية الشاكة الجاحدة ، ومنها الآية المؤمنة الزاهدة ، هو كالعصفور الذى يود أن يحلق فيحلق فى الأجواء حتى يبلغ الأوج الذى يستطيع ، ثم يهبط ويرضى بهبوطه لأن ارتفاعه لم يغنه شيئاً .

وكيف انتهى بيرون ؟ وهو الذى كان يرجو الموت فلايلقاه . ويكرهه أشد الـكراهية اذا تمثل فى الانتحار ، أراد موتاً شريفاً فى ساحة الأبطال ، فيمّم أرض اليونان حيث دعاه داعى تحرير الانسان من الانسان ، فوجد نفسه يحيط بها القلق ويغلب عليها الاضطراب . وهناك وهو فى السادسة والثلاثين من عمره نظم مقطوعة ودّع بها الشباب والحياة ، وهو فى أزهى ريعان الشباب والحياة ، فلم يتمنّ إلا قبر الجندى البطل . فناجى نفسه قائلاً : « إذا فقدتِ من الحياة أعذب شيء ، فمن أجبرك على احتمال هذه الأعباء الثقيلة ؟ هى هنالك ساحة الشرف ، فاذهبى واختارى مضجعاً عظيما ، اذهبى وتخيرى موطناً يهدأ فيه رمادك ثم استريحى »

وفى اليوم الموعود طار النبأ بأن (الرجل العظيم قد مات)

وقد أفرد النقادة الفرنسى (تين) فى كتابه « تاريخ الأدب الأنجليزى » صفحات مختارة ، تناول فيها الشاعر (بيرون) ووصف بحذق ودراية (مرض العصر) (la maladie du siècle) الذى فشا بين الأدباء ، فأسقط كواكبهم ، وصرع عظماءهم .

يقول تين : [وهـكذا عاش ومات هذا الرجل العظيم التعس ، فكان فريسة سمينة لم يعلق بمثلها مرض العصر [(١)] ، ومن حولها يتساقط الآخرون ضحايا . . . . . البعض انطفأ غارقا فى الذهول والنشوة ، والبعض قتله السرور والعناء . أما هؤلاء فقد آل أمرهم الى الجنون والانتحار ، وأولئك غلب على أمرهم العجز والداء . وكلهم عاشوا ناقمين حانقين متألمين ، وأشدهم عزماً من استطاع أن يحتمل جرحه حتى صار كهلاً ، وأكثرهم هناء من تألم كما يتألم الغير ، يحرص على جراحه وهى بريئة . قد ملأ أنينهم العصر كله ونحن وقوف حيالهم نصغى الى قلوبنا التى تردد هتافهم همساً ، ونحن كثيبون مثلهم ، تسيطر علينا الثورة ، فالديمقراطية قد فتحت مطامعنا دون أن ترويها ، والفلسفة أضرمت رغائبنا دون أن ترضيها . فرجل الشعب يشكو وضاعته . والشاك من شكه !

وانما هذا الرجل — كالرجل الشاك مصاب بسويداء حلت فى قلبه قبل أوانها . . . . فتراه يستسلم بعواطفه للشعراء الذين يقولون باستحالة السعادة ، وفساد بناء المجتمع وسقوط الانسان

لارجاء فى شفاء هذا الداء . لأنه داء لا تقوى على محوه عوامل السرور ولا الدين ولا أى شيء . . . وطويلاً سيشمر الناس بأن عواطفهم ترتعش لأنين شعرائهم العظماء . وطويلاً سينقمون على قدر يفتح لأهوائهم فضاء بدون حدود ، ولن يقدر لهم الشفاء حتى يحطموها . . . إن ذريتنا مصابة كالسابقين بهذا المرض نفسه . . إننا ذاهبون الى الحقيقة لا الى السكون ، كل مانستطيع أن نعالجه فى هذه اللحظة هو عقلنا . . . إذ ليس لنا ما تؤاخذ به عواطفنا ، ان لنا الحق بأن نتفهم آمال غيرنا التى ليس لنا مثلها ، وأن نهيء لمن يأتى بعدنا سعادة لن نتمتع نحن بها ، وستكون لهم أرواح صافية المعدن عند ما ينشأون فى محيط صافى المعدن .

ولـكن أين يكمن مورد هذا الصفاء ؟ إن مورده العلم وحده ، فان فى استخدام العلم وفى ادراك الأشياء ، فناً وأدباً وسياسة وشريعة جديدة ، وانما واجبنا اليوم أن نتحرى هذه الأشياء »

(بيروت) **خليل هنداوى**

(١) مرض الأسلوب العاطفى

العلوم

فكرة النظام الشمسى عند العرب

بقـــلم فرح رفيدى

امتـدت الممالك العربية فى أيام الدولة العباسية ، والكنيسة حينئذ فى أول عهد نفوذها ، وما قويت شوكة الخلافة فى بغداد ، حتى هدأت الزوابع السياسية التى كانت شديدة فى أيام بنى أمية ، وانصرف همّ الخلفاء الى نقل العلوم اليونانية والزيادة عليها . وأقول كما قلت فى أمر الكنيسة ، إن العرب تلقنوا هذه العلوم ، وخصوصاً علمى الهيئة والنجوم من اليونان ، لكنهم شرحوها شرحاً أقرب للحقيقة مما شرحته الكنيسة . والسبب فى ذلك واضح ، لأن الكنيسة كان غرضها الأكبر من تفسير العلوم اليونانية المحافظة على مقامها وتعاليمها لدى الشعب ، فأبقت العلوم لديها مختلطةً بالدين أو جزءاً منه . لكن العرب لم يختلط عندهم العلم بالدين اختلاطه عند الكنيسة ، فكان ما نقلوه وزادوا عليه هو لأسباب علمية بحتة ، وأيضاً لم يكن عندهم هيئة خاصة كمحكمة التفتيش تحاسب الفرد على اعتقاده ودينه .

لكنا إذا سلمنا بكل هذا ، فلماذا لم يحدث الانقلاب العلمى فى أيام العرب ؟ أى لماذا لم يتوصل العرب الى حلّ رموز هذا الكون الجليل بطريقة تبيّن إعوجاج النظام اليونانى ؟ نذكر لذلك سببين :

لما ابتدأ العالم العربى فى نقل العلوم كان ذلك فقط فى أيام المأمون فى أوائل القرن التاسع للميلاد ، أى فى بداية العصر العباسى الثانى ، ونعلم أنه قبل القضاء على الخلافة العباسية فى القرن الثالث عشر للميلاد قامت دول شتى فى كل أنحاء البلاد ، فعمّت الفوضى وكثرت القلاقل والحروب ، فلم يستتبّ السلام فى أيام بنى العباس إلا مدة قصيرة جداً . أى إن الوقت لم يكن كافياً للعرب ليقوموا بانقلاب أو تجديد فى العلوم اليونانية ، فاذا قابلنا مثلا المدى الذى تطورت فيه حضارة اليونان بالمدة التى قام فيها العرب بنهضتهم العلمية وجدنا الفرق كبيراً . فلو اقتصرنا ببدء حضارة اليونان من عصر تاليس وبيتاغوراس فقط فى القرن السادس قبل الميلاد ، الى عهد بطليموس وبوكليدفى القرن الثانى بعد الميلاد لوجدنا المدة تقرب من الثمانية قرون . أما عند العرب ، فيمكن أن يقال إن ترجمة العلوم اليونانية ابتدأت فقط من العصر العباسى الثانى ، أى فى ابتداء القرن الثالث للهجرة ، وبقيت حتى أواخر القرن الخامس للهجرة وهى مدة لا تزيد على الثلاثة قرون . فاذا كان اليونان بعظمة نبوغهم ، وباعتبار أن قسماً كبيراً من مدنيتهم مرتكز على المدنية المصرية القديمة ، لم ينتجوا ما أنتجوه فى أقل من ثمانية قرون ، فكيف يقدر العرب أو غيرهم ، أن يستوعبوا ما أبدعه اليونان من تعاليم طبيعية وفلسفية وغيرها فى مدة لا تتجاوز ثلاثة قرون ؟ خصوصاً والعرب كانوا حينئذ أمة جديدة على الحضارة ، لم تتعود ما اعتاده اليونان قبلا .

زد على ذلك أنه لو لم يعتن العرب بعلوم اللغـــة والدين والتوسع فيهما توسعاً زائداً ، فى عهد بني أمية وما بعده وصرفوا اهتمامهم الكافى لبعض العلوم اليونانية ، لكان العرب عندئذ أولى بأن يقوموا بحركة علمية جديدة .

لم يكن علماء العرب فى ذلك الوقت راضين عن النظام اليونانى أو محبذين له . فانه عند ما بدأ العرب ترجمة العلوم اليونانية ، ورأوا فكرة اليونان فى المجموعة الشمسية ، وما هى عليه من التعقيـــد والتناقض وعدم تلاؤم أجزائها ببعضها داخلهم الشك فى صحتها وارتابوا فى كثير من أقسامها . وجعل هذا الشك منهم عيوناً دقيقة الملاحظة ، حريصة فى التنقيب ، لا تدع شيئاً مهما كان حقيراً دون بحث أو تفسير . ولم يتركوا سبباً إلا فحصوه وشرحوه ووازنوه مع غيره من الأسباب ، وقابلوه مع ما تأتى لها من نتائج أرصادها ، فأنقصوا من النظام اليونانى أشياء ، وزادوا عليه أشـياء ، واعتمدوا فى كل شروحهم وتعليلاتهم على ما يستسيغه العقل ويقبله المنطق محاولين بذلك اتباع طريق غير طريق بطليموس وشرح نظام جديد ربما تصوروه ولكن لم يدون .

قام حينئذ من العرب ابن رشد وابن طفيل وتلميذه البتروغى فى القرن الخامس للهجرة ، وانتقدو كتاب الماجسطى حتى أنهم

لعدم اكتفائهم بتفسير النظام البطليموسى أتوا بأفكار مبتكرة فى حركات الكواكب السيارة ، وألفوا نظاماً جديداً يقال له Homocentric خلاف النظام اليونانى ، فأنكروا وجود الدوائر الصغيرة epicycles للكواكب ، وبذلك عللوا حركة الكواكب من الغرب الى الشرق وبالعكس تعليلا مخالفاً لكتاب الماجسطى ، ومنهم من اعتقد أن الكواكب لم تبعد مسافة واحدة ثابتة عن دائرة البروج (zodiac) ، بل هى فى أبعاد مختلفة ، إذ هذا هو السبب فى اختلاف شدة الضوء المنبعث منها .

ومن المشهورين فى تطور النظام الشمسى من العرب الخوارزمىّ سنة ٢٢٠ هـ . وهو صاحب الارصاد المختلفة والمرتبة بنظام خاص يقال له الزيج Astronomical Tables

والفرغانى سنة ٢٢٥ هـ . وله قياسات فى أبعاد وأقطار الكواكب الخمسة ، وكتابه « كتاب فى الحركات السماوية وعلم جوامع النجوم » ترجمه أكثر من واحد الى اللغة اللاتينية .

وثابت بن قرة (سنة ٢٣٥ هـ) ويُعدّ أكبر المشتغلين فى العلوم الهندسية من العرب ، أصلح ترجمة اسحق بن حنين لكتاب اقليدس ، ووضع عدة شروح عن النظام اليونانى ، محاولاً فيها كلها ابتكار نظريات جديدة ، وشروح سهلة لدرس النظام البطليموسى ، وله ارصاد مختلفة فى قياس بُعد الشمس وتحديد السنة الشمسية ، وقد أضاف فلكاً تاسعاً الى النظام القديم وراء فلك النجوم الثوابت ، وكان أول من وصف الكرات المتراكزة من العرب .

البتانى سنة ٢٧٠ هـ . وهو الذى اشتهر بدقة ارصاده من أيام هبارخس الى كوبرنيكس ، حتى فاق الخوارزمىّ بدقة ملاحظاته فى الكواكب السيارة . وكان من منتقدى بطليموس ، وقد وجد ميل دائرة البروج عن دائرة خط الاستواء ٣٥َ ٢٣ْ وهو رقم مطابق لقيمة الميل الحديث ، وعمل ملاحظات دقيقة عن القمر واختلاف حركاته ، وعن أوقات الخسوف والكسوف . وهذا ما قاله عنه ابن خلكان . « له الأعمال العجيبة ، والارصادات المتقنة ، وأول من ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤هـ ، وله من التصانيف : الزيج ، وكتاب معرفة مطالع البروج ، وشرح أربع مقالات بطليموس ، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء » .

الزركلى سنة ٤٦٠هـ . اشتهر بصنع أدوات الرصد وخصوصاً الأداة المسماة بالصفيحة Astrolabe ، وهى لقياس أبعاد وأقطار الكواكب السيارة . كتب شرحاً ترجم على أيام الملك الفونسو ملك كاستيل Castille ، وقد أخذ عنه وعن البتانى كوبرنيكس فى تعليل نظريته الجديدة

ولعل أشهر التجارب العملية التى قام بها العرب أيام المأمون هو قياس الدرجة من خط نصف النهار ، بواسطة ثلاثة إخوة يقال لهم بنوموسى ، وبطريقة غير التى عمل بها اليونان الأقدمون ذهبوا الى موضع فى سهل سنجار فى العراق ، فذهب بعضهم شمالاً والبعض جنوباً ، حتى رأوا فى الشمال النجمة القطبية ترتفع درجة وفى الجنوب تهبط درجة . ثم قاسوا المسافتين ووجدوا الوسط بينهما ، ولكنهم اتخذوا الرقم الأكبر منهما وهو ⅔ ٥٦ ميلاً

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم ، قام أناس كثيرون من العرب أتوا بأبحاث جليلة مختلفة فى شكل النظام الشمسى ، وتعليقات شديدة النقد على النظام اليونانى لا يسعنا ذكرها الآن .

قد يبدو النظام اليونانى للبعض بسيطاً بالصورة التى شرحناها ، ولكنه فى الحقيقة معقد وغاية فى الصعوبة ، وفيه كثير من المتناقضات لعدم ثبوته على أساس راسخ ، والذى زاد فى المسألة تعقيداً هو نظرهم للظواهر كما ترى لا كما يستسهلها العقل البشرى .

فتعقُّد النظام اليونانى وتناقضه ، من كثرة ما زيد عليه من الكرات والدوائر الصغيرة ، ولّد الشك فى قلوب الكثيرين من العرب . وهذا الشك هو الذى حرضهم على البحث والتدقيق فى ملاحظاتهم ، وعلى التأمل فى نتائج ارصاداتهم فى الكون ، وربما يمكن أن تكون أسباب التناقض وعلل النقائص ومسببات الحركات الشاذة والمختلفة التى لاحظوها ولاحظها اليونان من قبلهم . لكن هذا الشك الذى نراه فى كثير من شروحهم ومؤلفاتهم لم يتخذ طريقاً محسوساً معيناً يمكننا معه أن نسميه انقلاباً علمياً كالذى قام به كوبرنيكس وكبلر وغاليليو فيما بعد .

ومع أن العرب لم يتوصلوا الى اكتشاف جديد فى ميزة هذا الكون العجيب ، وتعليل ظاهراته تعليلا صحيحاً ، فان دقة ملاحظاتهم وحسن ترتيب نتائج أبحاثهم ، جعلتهم يفوقون الأغريق ويبذونهم فى أشياء كثيرة . فقد مهدت السبيل لاكتشافات مقبلة ، وجعلت فكرة النظام اليونانى سهلة التغيير قابلة للانقلاب الى الفكرة الصحيحة ، حتى لم يكن بينهم وبينها إلا مسافة قصيرة جداً بدليل أن كوبرنيكس مبتدع الفكرة الجديدة لم يتوصل الى ما توصل اليه إلا بعد مراجعة كتب العرب ، وقد عاش بعد ما انطفأ نور العلم فى الشرق بمدة غير طويلة .

فرج رفيدى

القصص

رجل ... وامرأة

بقلم محمد سعيد العريان

— ١ —

جلس شوكت افندى كاظم فى حجرة الانتظار بمدرسة ... يجيل طرفه فى قطع الأثاث المبعثرة ، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان . لم يتغير شيء فيها عما رآه لآخر مرة منذ سنوات أربع ؛ هذا النضد الصغير فى زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان فلم يتزحزح عن موضعه ؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدد عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح فى أحلام اليقظان ؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة ، فى أساريرها مرح الطفولة ، وفى عينيها بريق الأمل — إنها فى موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين ، ولكنها زادت أخرى ، لا شك . أنها صور الفرق التى أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها ... ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطراً من حياته فى منزلة الأب الثانى ، ثم فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج الى حيث لا يدرى من فجاج الحياة . ما أسرع ما تمر السنون ! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم ؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو مايزال حيث تركوه فى منصبه وجاهه ! ... ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة ، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره ؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضى ، ذكريات حية ما يزال قلبه بدمها ينزف . وحدق فى الصورة طويلاً تحديق العانس فى المرآة تنعى الشباب وتتهم الزمن ... منذ ثمان سنوات حين دُعى ليجلس بين تلاميذه فى هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذى يعيش اليوم ، لقد كان يومئذ يعيش فى وادٍ من الأحلام : أحلام الشباب والمرأة والحب . أين هو اليوم مما كان ؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن ، وأما الحب فقد دفنه هناك ولفه فى أكفان اليأس ، وأما هى ...

ودخل الضابط يحييه بصوت غليظ ، فى يده عصاً ومن ورائه غلام . واندفع عادل شوكت الى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه ، فلم يخش عصا الضابط ولا صوته البغيض ؛ وضم الرجل ولده الى صدره ومال عليه يقبله فى ظمأ وشوق ؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته ؛ وسبح أبوه فى ذكريات ينشرها ويطويها :

لقد كان يحبها أعنفَ الحب وأرقَّه ، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يُصفيها الحب ويخلص لها الوداد ؛ وقد ظفر بها ونالها ، فأين هو اليوم من سعادة الحياة ؟ ! لقد أفلتَتها فلم يبق بين يديه من تلك المنى الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها فى عينى هذا الغلام .

وعاد الى الماضى يسترجع ساعاته ولياليه ، ويحصى على الزمن سيئاته وأياديه : لقد عرفها فتاة فى إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دلٌّ متواضع وكبرياء تبتسم ، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش فى وهم الأمانى ... واستطاع أن يلفتها اليه وأن يجعلها تهتم بأمره ؛ ومدت اليه خيط الرجاء فتعلق ، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدنى نفساً الى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شيء فى حياته ، وأنه كل شيء فى حياتها . وشاركته سعادةَ الأمل ، وأخذ يُعد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه ، وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء فى إباء الراغب ورغبة المتأبى ؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة ؛ فيوماً دلال ، ويوماً عتاب ، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد وتريد ... وهكذا راح الزمن يذكى فى صدريهما لواعج الشوق ، ويضرم لهيب الوجد — أربعُ سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل ؛ ثم زُفت اليه . لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته ، ولكنه أعطاها مَقادَته من اليوم الأول ، ولم يتلقها إلا بتقديس وعبادة ، وظل بعدها فى العبادة والتقديس !. وإنها لتحب السيطرة والسلطان ، بعض ما فى دمها من طباع الشركس ؛ وإن فيه لطراوة وليناً من ضعف العاشق الذليل ؛ فأخذت تملى عليه إرادتها وهو كالكرة فى يد الصبى . ولم تجد فيه رجل أحلامها الذى قدّرت أن يكون ، فراحت تنتقص من

سلطانه وهي تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال . وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته ؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعلي إرادته ، ويُلوّح للحب بالبغض ؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد ، ولا يستطيع أن يكون رجلاً حين يريد . . .

— ٢ —

ورأت كل حاجاتها لديه مقضية ؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية في هذه المملكة الصغيرة ، حتى الرجل الذي كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها . وراحت تبالغ في مطالبها ، لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية . وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا الى الاسكندرية فلم يجد في نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن آلاف الاصطياف هناك فوق مايتحمل مرتبه الضئيل .. وقضيا في المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجه بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق ، وكان لها في نفسه لذع ومرارة . وأخذ الحب الذي كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً ؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى ؛ وصارهمها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صواحباتها ، أوليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر ، أو سفرة الى هنا أو هناك تجتلي من مشاهدها أنساً وبهجة . ولم يكن يضن عليها بشيء . . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج ؛ فكانت تقضي نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو ، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً ، حتى اطمأنت الى حريتها كاملة في الغدوّ والرواح ، وفي السهر أيضاً ؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب ! . . وألف شوكت أن يعود الى البيت في النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيئ له الطعام ، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً ، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة ، وأن يستيقظ في الصباح على نغمات من صوتها الندي الرقيق ، وأن يمسي ووجهها آخر ما يراه من دنيا اليقظة . ولكن الكرة مازالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه . . !

وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة في البيت ، ودق الباب فلم يجب أحد ، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى يرن ثم يتلاشى في مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة . . . ترى أين ذهبت الخادم ، وأين زوجه الآن ؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام ! أليس له عليها مثل حق الأزواج ؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق ؟ . . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه الى الأرض ، يمدّ بصره بين حين وحين يرقب الطريق . . ورأى زوجه مقبلة في سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن في فتنة مغرية ، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات . ورأته زوجه فقالت : « أنت هنا ؟ » ولم ترد ، وسبقته تفتح الباب وانصرف صواحبها . ولما اطمأن بهما المكان قال لها :

— « لقد ضايقني الانتظار يا إلهام ، أين الخادم ؟ » . قالت :

— « الخادم ؟ لقد سافرت لترى أباها . ألم أنبئك ؟ » .

قال وقد رسم الاستياء خطين على جبينه :

— « وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكوني في انتظاري ولا تتركيني بالباب ؟ ! »

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان ، وقالت تداعبه في لين وتكسُّر : « ليتك لا تغضب يا شوكت ، أنا أحبك ! » ثم كانت قُبلة نسي معها الغضب والعتاب . . .

وتتابعت أيامها من بعدُ بين غضب ورضى ، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه ، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه إرادته . . . ومرّ عام ، وصار شوكت أباً . هذا ولده عادل .

***

ودق الجرس في فناء المدرسة ، فانفلت الغلام من بين يدي أبيه كما فرت سعادته من قبل . . !

أين هي الآن ؟ إنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه ، ولكنه قد فارقها إلى الأبد ! وآلمته الذكرى ، فأخرج علبة من جيبه فأشعل دخينة ، واعتمد بذراعه على حافة المقعد ، وأسند رأسه إلى راحته ، وزفر زفرة ، وتلوّت ثعابين الدخان صاعدة ، وراح يتابع الذكرى الأليمة :

لقد كافأته زوجه على حبه ووفائه وطاعته — بالسخر والتمرد والعصيان ! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة وأغلب إرادة ، فلعله كان أحبَّ إليها صلباً غلاّباً صاحب إرادة وعنفوان . . . !

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل ، ليس له حدود تحصره في دائرة الممكن ، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل ؛ فلما ظفر بها ضل الطريق إلى السعادة ، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها ..!

وحين أراد أن يهيء لها سعادة الرضى في جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهى فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه اليه آمرة مطاعة . . . !

ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن في حراسة التقاليد ، لتفاهم قلباها على الود الكريم ، ووضعا الأساس لحياة الغد على غير جُرُفٍ هار من الوهم والخيال . . . !

لم يكن يومئذ يدرى أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذى يغلبها ويفوقها ، بقدر ما تحتقر الرجل الذى يترامى على قدميها فى ضعف وهوان ، ولو كان ضعف المحب وهوان العاشق . . . !

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه فى البيت كضيف على ميعاد ، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه ! وربما قضى الساعات فى البيت وحيداً ، وهى هناك تتنقل زائرة من بيت الى بيت ، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً فى الأسبوع ، هو يوم الاستقبال . . . ولقد كان فى البيت مرة وسمع بأذنيه أى الشئون يتحدث فيها النساء : حديث الأزواج ، وشح الأزواج ، وغفلة الأزواج ، ثم الأزياء والملاهى ولا شىء غير ذلك ! . . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعْن يوم الاستقبال . لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه ، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام ، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسىء الظن بأخلاق زوجه ، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع ؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر . . ! . . آه لو كان يدرى يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه ، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها الى الصواب !

— ٣ —

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه ، حتى حين مرض بالاسكندرية صيفَ عام واشتدت به العلة ، وأمره الطبيب أن يعود الى بلده ، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف ، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطئ فى حراسة الشيطان ، تداعب أمواجا فى البحر وأمواجا فى البر ، لقد كان لها يومئذ رغبات نسيت فى سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم ، فلم تعد إلا بعد شهر !

لم تهنأ إلهام بالحياة فى بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة ، وحالت بعد عودتها امرأة أخرى ؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها ، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم ، ومزقت القناع عن وجه عابس ، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها فى كنف الزوج الحبيب ، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً ، ويتحبب إليها فلا تبدى غير البغض والكبرياء . . . وآلمه ماتغير من أخلاقها ، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها ، ويحصى ما قصر فى حقها وما اقترف ، فلا يبدو له إلا صفحات كلها حب ووفاء وتضحية . وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس .

وترامت اليه الأخبار بما يتحدث الناس من شأنها ؛ وكان آخر من عرف ... ياللهول ! وأفاق من وهم الحب . لقد مدّ لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت فى أعماق الهاوية وجذبته معها !

واستعاد رجولته ، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره ، وفارقها فى صمت ، عيوفا أبيّا ، ولكنه خلف قلبه هناك . . . تحت وسادتها وبين الحشايا !

وكان له ما أراد ، ونقل من البلد الذى دفن فيه الشباب والحب والأمل ، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً ؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج .

وهاهو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش فى حضانته ، بعيداً عن عار الخطيئة — عن المرأة التى كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أمّ ... !

***

وصلصل الجرس وما زال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة فى يأس ؛ يأس المحب الوفى جوزى بحبه ووفائه غدراً وخيانة !

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح : « أهلاً ، شوكت ، متى حضرت ؟ »

وهز يده بقوة ، وربت على كتفه بحنان ثم أردف :

— « إن صديقنا « أحمد » لموفق ، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه ، وقد حضرت . »

قال شوكت : « زفافه ؟ وماذا ترانى أصنع له فى زفافه ؟ »

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه : « لاأحسبك نسيت ما كان بينكما من ود ؛ أفليس من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التى يهواها ، وإنك لتعرف أين كان أمله ! »

وابتسم شوكت فى ألم ، وقطب جبينه ، واسترجع كل ماضيه الأليم فى لحة ، وقال لصديقه ساخراً : « وهل تراه ظفر بشىء يستحق التهنئة ، أم ترانى أعزيه . . . ! »

وتولى عن صاحبه وهو يمسك بيد ولده ، والأرض تجاذبه

إلى الخلف — إلى حيث يرى المرأة التى أحبها تخانته . ولكنه عرف كيف يكون رجلاً ، وكيف يقمع فى صدره ذلك الحب الذليل الذى نزل به إلى الهوان والعار . ومضى فى طريقه إلى البلد الثانى وكأنما كان يدوس بقدميه قلبه الدامى فيحس وخزاً أليماً فوق ما تحزه الذكرى وتؤلمه .

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضى حجاب النسيان ، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه ، حتى برىء من دائه . وأخذت ذكريات الماضى تتضاءل فى رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى ، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التى كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل .

وانقضت سنوات ثلاث ، ثم رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التى كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض ، ويبغض من أجلها النساء جميعاً . لقد أخفقت فيما سعت إليه ، فلم تظفر بالسعادة التى انطلقت وراء أوهامها وحطمت فى سبيلها عش الزوجية ، وحالت الثمرة التى كانت تشتهى حلاوتها مُرّةً كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين اليها من الرجال ، لقد انفضّوا عنها جميعاً بعد أن ملوّها ، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة فى غرام جديد أبىّ ، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغيب المجهول . . وتنكرت لها الحيـــاة فعادت الى الماضى تستلهمه ، فاذا هى ما تزال تحب شوكت . . . وذكرت فى النهاية الرجل الذى كان يحبها ، والذى كان يبيع من أجلها كل شىء ، فجاءت تسعى اليه معترفة تائبة . هيهات ! لقد أضلها السراب طويلاً ، فلما همت أن تعود الى المناخ كان الركب قد تحرك ، فلم تدرك غير الغبار يُقذى عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق !

وأغلق الرجل دونها بابه ، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه . لم تؤثر فيه دموع الندم ، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم ، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة ، فبقى معها بليد العاطفة ، وعلمته ألا يؤمن بالحب ، فأثبت لها أنه لا يؤمن بالحب ، وعلمته ألا يثق بوعود امرأة ، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة . .

وحين عادت المسكينة امرأة ذات قلب . . . . عاد المسكين رجلا بلا قلب ! . . ؟

محمد سعيد العريان

٣ ـ سافو

لأوجيبه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

كاوودال — (ينادى) هِى . هِى

لابودرى — يا صاحب المطعم

الجميع — أنت يارجل

(يظهر صاحب المطعم)

كاوودال — أسرع فلقد قتلنا الظمأ

صاحب المطعم — أهلا أهلا بأسيادى (وكأنه يعرف كاوودال) سيدى كاوودال . . . ما أطيب هذه الفرصة تفضلوا.
فاجلسوا عندهذه البراميل أو تحت هذه الشجرة الظليلة

كاوودال — نبيذك الطيب أولاً !

لابودرى — الأبيض ؟

كاوودال — أصبت

صاحب المطعم — كما تشاؤون . والطعام ؟

كاوودال — عند المساء متى عدنا ، ولكن ماذا عندك منه

صاحب المطعم — كلُّ ما تشتهون

كاوودال — شواء مثلا ؟

صاحب المطعم — نعم . وفرختان !

لابودرى — حسناً

صاحب المطعم — وضلع

كاوودال — لا بأس

صاحب المطعم — ثم . . .

الجميع — هذا يكفى

كاوودال — (منشداً) ولكنْ أيها الشيطان

لابودرى — اذا أهملتَ فى الألوان

آخر — والمـــزاتْ

ثانٍ — والسّـــلطات

ثالث — وحذار أن تنسى كذا البصطرْمه

رابع — معها والا فالجزاءُ

صاحب المطعم — « الصَّرْمه »(١)

(ضحك عام)

(١) رصدنا هذا اللفظ العامى المألوف لنستقيم القافية سيما وأن المقام مقام هزل

صاحب المطعم — (منادياً) نبيذ أبيض حالاً (ينظف الموائد ويرتب المقاعد حيث يجلسون ، وعندئذ يظهر الخدم حاملين قناني الشراب والكؤوس)

كاوودال — ليحيي النبيذْ ليحيي الشرابْ

الجميع — ليحيي النبيذْ ليحيي الشرابْ

كاوودال — شراب النبيذ شراب لذيذ
يردّ الشبابْ لصرعى الخضاب

الجميع — ليحيي النبيذْ ليحيي الشرابْ

كاوودال — ألا فاشربوا ولا تحسبوا
لهمٍّ حسابْ فهذا الصواب

الجميع — ليحيي النبيذْ ليحيي الشرابْ

صاحب المطعم — ليحيي السنم

الجميع — لتحيي الصرم

(ضحك عام)

(يظهر حنا)

كاوودال — (وقد لمحه) حنا ؟

حنا — (يقترب ويحيي بقبعته) نعم أنا

كاوودال — ما أجملَ هذه الصدفة

لابودرى — كيف أنت ياحنّا . أنت مقيم هنا

حنا — بل هناك (مشيراً) لأني أميل للغابات أتفيّأ ظلّها واملأ عيني منها . نعم إن الحياة بالقرب منها خير من حياة المدن حيث السكون والنسيم العليل

كاوودال — وهل لازلت مع سافو

حنا — سافو ؟ من هي سافو

لابودرى — فني . نموذج المصنع

حنا — (مفكراً) إذن هي سافو (متردداً ثم يتكلم) لا . إنني تركتها .

كاوودال — تركتها ؟ إنها فتاة حسناء . ولكنها مع ذلك . . .

حنا — ولكنها ماذا ؟

كاوودال — . . . لا شيء

حنا — لا شيء ؟ ولكنك قلت إنها ! . .

كاوودال — فتاة لا وفاء لها . نعم إنها تحفة من تحف الُحسن . ولكن حبّها مشوب بالآلام . على أن من يقع فى شركها يصعب عليه أن يسلوها .

لابودرى — لقد صدقك كاوودال يا حنا

كاوودال — ومع ذلك فدليلي قصّتها مع ذلك الحفّار الفنان

لابودرى — فرومان

كاوودال — بعينه . فلقد دفعته إلى تزوير زجّ بسببه فى السجن . على أنى لا أزال أذكر يوم أخذوه اليه وهى تودعه بأطراف أناملها وتقول له تشجع يا بيبى فعما قريب تخرج ونعود الى سيرة حُبّنا .

حنا — (لنفسه وهو مفكك) إنها تناديني بمثل هذا أيضاً

كاوودال — مالك يا صديقى ؟

حنا — الحقيقة أنى كذبتكم . فأنا من سنة أتلوّث بصحبة هذه الفاجرة . ولقد استسلمت لمكذوب حبها ، ومعسول كذبها حتى أبحتُها قلبي ومشاعرى لأنى كنت أجهلُ أمرَها ولكني الآن أُقسم لكم أن كل ما بينها وبيني قد انقطع وانتهى

(تظهر فنى من بعد)

آه . . .

كاوودال — (يلمحها) سافو

سافو — (وحنا يفر منها) حنا

حنا — دعينى (ثم يختفى)

سافو — (فى نفسها) نمُّوا عنده عليّ (لهم بحدة) الآن وقد فرّ بسعيكم فلن أخشاكم أيها الأنذال

كاوودال — (يسكن ثورتها) هوّنى عليك ياسافو . اسمى

لابودرى — عودى الى رشدك ولا تتحدّى

فني — لقد أكلكم الحسد على حبه الذى أسعدنى وغير سبيل حياتى فصورتمونى له فى أشنع صور الرذيلة حتى التوى وفرَّ مني . إنكم غلاظٌ قساة (للابودرى) وأنت أيها المنافق طالما أسهرت جفني وأجريت دمعي . ولا زال صدرك طافحاً بالحقد على صفوى فحطمت قلبي الذى أصلحه هذا الفتى ، وهكذا لم أخطئ فى حسبانى إذ علمتم فوشيتم فانتقمتم . فأنا الآن إذا كنت أتعلق بأذيال الحياة فلكى ألعنكم وأستنزل غضب الأقدار عليكم .

الجميع — (بغضب) سافو (يتجاذبونها كأنهم يحاولون جرها معهم)

فني — دعونى فما عادت تطيب بعد ذلك نفسى للحب . لقد أصبحت أمقتكم جميعاً أيها الأخسّاء

(تهجم على لابودرى فيضحك ويضحكون)

« يتبع »

محمود خيرت

٣ - سيوة

تجارة سيوة

يجاور مسطاح البلح الكبير مقام سيدى سليمان ، وهو عبارة عن بناء بسيط يحتوى على مقبرة ، إلا أن له مكاناً محترماً فى قلوب سكان سيوة ، ويحيط بهذا المقام بعض قبور أخرى يقال إنها للمقربين اليه من أتباعه ، ويعلو المقام سعف نخيل معلقة فى نهايته قطع من أقمشة مختلفة الألوان ؛ ويلاصق هذا المقام مسجد جلالة الملك فؤاد الأول ، وبدئ فى بناء هذا المسجد فى عهد الخديو السابق عباس باشا ، حتى وصل ارتفاعه أربعة أمتار ، غير أن العمل وقف فيه لقلة المال وكثرة التكاليف ، ثم تم بناؤه فى عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول فى سنتى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، وأصبح مسجداً يضارع مساجد القاهرة الكبيرة فى كبر حجمه وروعة بنائه . ولقد تحريت عن السبب الذى حدا بالخديو السابق أن يفكر فى بناء مسجد كبير كهذا فى واحة منعزلة مثل سيوة على الرغم من صعوبة المواصلات وقلة وسائل العمل فى الوقت السابق ، فروى لى أنه كان يقصد ببنائه أن يكون جامعة إسلامية فى الصحراء الغربية ، يؤمها السنوسيون وغيرهم لتكون لهم بمثابة الأزهر فى وادى النيل ، وأنه كان يتصور أن مثل هذه الجامعة تمكن له فى قلوب السنوسيين فيفيدوه فى الصحراء وقت الحاجة . وعدا هذا المسجد الكبير توجد مساجد أخرى مقامة على نظام المنازل السيوية من الملح والطين ، وسقوف من خشب النخيل ، ولها مآذن غريبة الشكل ، أشبه بمداخن المعامل ، وسمك حائطها من أسفل حوالى مترين ، ثم يقل سمكها تدريجيا كلما ارتفع بناؤها حتى يصل فى النهاية الى ثلث متر تقريبا

وكان أئمة هذه المساجد يدرسون فى الوقت الماضى القرآن للصبيان على طريقة عتيقة غير مألوفة ، وهى أن يحفظوهم القرآن من غير أن يعرفوا القراءة والكتابة ، ولكن مصلحة الحدود أنشأت مدرسة أولية بسيوة تتبع فى تدريسها منهاج وزارة المعارف العمومية ، ويؤمها أولاد السكان ؛ غير أن الأقبال عليها غير كثير برغم كل تسهيل يقدم للأولاد ، وتتساهل المدرسة فلا تطالب من الطلبة إلا أن يلبسوا جلباباً نظيفاً وطاقية نظيفة ، على أن معظم الأطفال يحضرون حفاة من غير أحذية ، ومع كل ذلك فالرجل يفضل أن يشغل ابنه فى الحقل أو الحديقة على أن يعلمه أبسط المبادىء من القراءة والكتابة والحساب ، ووصل الأمر بعناية الحكومة بهؤلاء الناس أن أرسلت اثنين منهم للجامع الأزهر ليتلقوا فيه العلوم الدينية على أحسن الأساتذة ، غير أنهما بعد بضع سنين كرها الأقامة فى القاهرة ودفعهما الحنين إلى سيوة فعادا إليها ولم يحصلا من العلم إلا قليلا

تتكون السوق فى سيوة من بضعة حوانيت متجاورة تبيع كل ما يحتاجه السكان من مختلف الأصناف ، وأثمان جميع الحوانيت واحدة ، ولذا فلا يهم الشارى أن يشترى من هذا أو من ذاك مادام الثمن واحداً ، وإذا دخلت حانوتاً من هذه الحوانيت خيل اليك لأول وهلة أنك فى مخزن بضائع إذ ترى فيه عدة رفوف من خشب قديم وميزان وبعض الأكياس « والمقاطف » فيها دقيق وعدس وفول وسكر ، وفى ركن من أركان الحانوت بضعة أثواب من البفتة ، ومعلق بسقف الحانوت بضعة مناديل للرجال والنساء ذات ألوان متنافرة غريبة . وترى فى ركن ثان من الحانوت بضع صفائح بها زيت الزيتون وأبسطة من الصوف تنسجها نساء العرب بأيديهن ويبعنها للتجار . ويربح بعض التجار كثيراً من حوانيتهم وبخاصة من بيع البلح وزيت الزيتون ، على أن النقود المتداولة فى سيوة هى النقود المصرية بجميع أنواعها ، ولم أر بها عملة أخرى كما هو الحال فى السلوم ، إذ أنني رأيت فيها العملة التركية القديمة وبعض النقود الايطالية متداولة فى أيدى التجار والأهالى ، وقد اعتاد الأهالى أن يرهنوا حدائقهم وحقولهم لبعض التجار نظير أرباح باهظة ، حتى أن بعض التجار يتمادى فى الجشع فيطلب من المدين أن يسدد دينه بلحاً وزيتوناً ، ولكنه ينص فى شروط الرهن على أن يكون سعر البلح والزيتون نصف سعره المعتاد فى السوق ، وبذلك يكون التاجر قد ضاعف مبلغه الذى أقرضه للمدين زيادة على الارباح التى ينالها عن مبلغه الذى دفعه للمدين ، وفى ظروف كثيرة يقبل المدين كل تلك الشروط الباهظة لحاجته للمال . وقل أن يرى المرء امرأة أمام حانوت من حوانيت البلد ، والعادة أن تمر زوجة التاجر أو أمه ببضاعتها على المنازل

ليشترى أصحابها ما يشاؤون ، وما تشـــتريه النساء عادة يكون الـكحل والحناء وبعض حلى من الفضة : كالدمالج ، والأقراط الـكبيرة الحجم التى تتـدلى أطرافها من الأذن حتى تصل كتفى المرأة أو الفتاة . ثم إنهن لا يلبسن العقود الملونة من حبات متلاصقة كما هو الحال فى المدن . بل إنهن يلبسن أطواقاً من الفضة حول أعناقهن بأن يدخلن رؤوسهن فيها . ولذا فهى تباع كثيراً لدى التجار ، وأيضاً فانهن يشترين أحذية من جلد أحمر رقيق ، وملاءات يلتففن بها وقت خروجهن ، وهى من قماش قطني ذات خطوط زرقاء تجاورها خطوط رمادية ، وهذه الملاءات يحضرها لسيوة أحد التجار المصريين ، إذ أن لعمه مصنعاً خاصاً ببلده بمديرية الجيزة ، ويشترين أيضاً بعض الاصباغ الخضراء والحمراء والزرقاء ، لصبغ سعف النخيل الذى يصنعن منه « مراجين » وسلات وغيرها

وكثيراً ما تبيع زوجات التجار بعض الأحجبة والتعاويذ الفضية التى عليها آيات من القرآن الـكريم . وقد لاحظت أن النساء لا يحاولن تغيير ملبسهن بأحسن منه ، وكلهن فى ذلك سواء . وليس فى السوق سوى قصابين يبيعان عادة لحم الجمـــال للأهالى والعرب ، ولـكنهما مكلفان ببيع لحم الضأن ثلاثة أيام فى الأسبوع هى الأحد والثلاثاء والجمعة ، وهذا طبعاً ليتمكن الموظفون الحـكوميون من أكل لحم الضأن . ولذلك لا يذبح القصاب إلا كبشاً واحداً يكفى الموظفين ، لأنهم يشترون فى الأيام الثلاثة اللحم الذى يكفيهم كل الأسبوع .

وأهم ما يشتريه الأهالى من التجار الشاى والسكر فهما عماد الحياة والعمل لدى السيويين والعرب ، ولا يمكن أن يستغنى عنهما منزل قط ، ولاحظت أن إقبال السيويين على شرب القهوة قليل جداً ، بل يمكن القول بأنه معدوم ، وحدث أن احتاج آدمى بناً لعمل قهوة فبحث فى حوانيت الواحة كلها فلم يجد .

* * *

يحيك السيويات ملابسهن وملابس أزواجهن وأولادهن باتقان ودقة ، وبعضهن يطرزن ملابسهن بخيوط حريرية مختلفة الألوان ، غير أنه يخالف ما ألفناه فى القاهرة ، وبعض السيويات يغزلن الصوف وينسجنه ويصنعن منه جبباً للرجال يلبسونها وقت الشتاء القارس ، وهذه الجبب وان كانت رديئة المنظر إلا أنها تساعد الرجال على تحمل برودة الشتاء على كل حال .

على أن للسيويين والسيويات طباعاً نراها نحن شاذة لا تتمشى مع ما ألفناه من عادات وأخلاق ، وسنأتى على سرد تلك العادات تباعاً إن شاء الله ؟

(يتبع)

الكتب

كلمة الى الشباب الطلبة على ذكر كتاب

مرشد المتعلم

ترجمة الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كثيراً ما هممت أن أكتب فى أمر من أمور التعليم الى الرسالة الغراء، عالماً أن صدرها الرحب يتسع لذلك البحث لما فيه من مساس بناحية حيوية من نشاطنا ، غير أنى كنت كلما هممت بذلك قعدت بى معان صدتني عن عزمتي . فانني معلم بي ما بصاحب الفن من حب لفنه وانصراف بقلبه اليه . غير أن التعليم مرتزق ، وسبيل الأرزاق غير حبيب ، فما يكاد الرجل ينصرف من مضطرب عيشه حتى يود أن يتناسى مااعتراه فى ذلك المضطرب ، فتراه يقبل على كل حديث غير حديث فنه ، ويحب الخوض فيما يبعد به عن ذكر صناعته . ومع ذلك قد رأيتنى أقرأ كتاباً أهداه الىّ صديق كريم قد ترجمه عن الانجليزية الى العربية ، وهو الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فبدأت قراءته لأنه كتاب صديق ، ثم رأيتنى أسير فى قراءته مقبلاً عليه لما فيه ، واضمحلت صورة الصديق شيئاً فشيئاً من ثنايا السطور حتى صرت بعد لا أجدها ، وصرت أعاود الكتاب لنفسه ، وأطلب صحبته وحديثه لما أجده فيه من فائدة ولذة ونشاط .

ذلك الكتاب سفر قيم . أقل ما أصفه به للشبان أن قراءته ضرورة لازمة لهم إذا شاءوا أن يخرجوا من دراستهم على أكبر قسط من الفائدة من وراء جهدهم وعملهم . وإذا كنت أخاطب الشبان بذلك فانى أفعل ذلك لعلمى بأنهم أحوج الناس الى قراءة مثله ، ولكن ليس معنى هذا أن من هم من طبقة أعلى من الشبان سناً قد بعدوا عن أن يجدوا فى قراءته فائدة ، أو استغنوا عن أن ينتفعوا بما فيه من بحوث طريفة فانى أقول غير مجامل ولا مبالغ أننى قد خرجت من قراءة ذلك الكتاب وقد علمت كثيراً مما كنت أجهل ، واستوضحت كثيراً مما كان غامضاً مبهماً عندى ، وغيرت كثيراً مما كنت متجهاً اليه ، قانعاً به . وفضل ذلك الكتاب لمن يقرؤه من الكبار أنه يوحى اليهم معانى جديدة بما يأتى به ، مما قد يكون معلوماً لهم ، فيرى القارىء المعانى تهم فى نفسه وهو يقرأ كأنما تلك القراءة تثيرها وتوقدها .

قلت إن الطالب الشاب لا غنى له عن قراءة ذلك الكتاب ، وذلك لأننى أعرف أن الطالب الشاب فى حياته اليومية يسير سيراً غير مهتد . فلا هو يجد من يهديه ولا هو إذا وجد من يهديه يأخذ عنه نظاماً تاماً شاملاً يستطيع أن يهتدى به فى كل جهوده وأعماله على اختلافها . فالطالب يقرأ ، ولكنه وهو يفعل ذلك يتجه إلى حيث تدفعه المصادفة أو المثل ، وقد يكون موفقاً فى طريقته كما انه قد لا يكون موفقاً ، ولكنه على أى حال لا يكون فى اتجاهه مرتكناً على أساس قوى علمى . ولا أظن أن بين المعلمين أو أساتذة الجامعة من يجد فرصة فى وقت درسه يستطيع أن يرشد الطالب فيها إلى خير الطرق التى يسلكها فى دراسته ، فان الوقت مخصص كله لمادة الدروس بطبيعة الحال . ولقد كان من أشد الأمور إيلاماً لنفسى أن أرى فى بعض الأحيان بعض تلاميذى وهم ينكبون على دراستهم انكباباً غير موفق ، إذ يتبعون فى ذلك طريقة تجعلهم كمن يحاول السباحة فى وجه التيار ، فلا هو موفر جهده ، ولا هو سالك سبيله . وكنت إذ أرى ذلك أحاول جهدى أن أرشد بمقدار علمى ، ولكنى كنت لا أستطيع أن أبسط المعنى بسطاً تاماً يستقر فى النفس استقراراً متمكناً ، ويحيط بالمصاعب من جميع أطرافها . فكنت أتمنى لو أتيح لهؤلاء المساكين كتاب يستطيعون أن يجدوا فيه الهداية .

وما كنت أجد تلك الطلبة حتى أتحف الصديق الغمراوى قراء العربية بكتابه .

يبدأ ذلك الكتاب بمقدمة ككل كتاب في مثل موضوعه، يهيئ فيها المؤلف عقل الطالب الى أن يدخل على عمله بذهن مفتوح وعقل فاحص يقظ، وهذا هو الفصل الأول وعنوانه « تولى المرء أمر نفسه » ثم يلقى عليه فى الفصل الثانى خطة العمل ويسميها « خطة الغزو » يبين له كيف يقسم وقته للمذاكرة والدراسة، وما مقدار الوقت الذى يجب عليه أن يجعله لتلك المذاكرة، وطريقة تقسيم ذلك الوقت على مختلف المواد، وأى المواد يبدأ بمذاكرتها، وأيها يؤجله فى ترتيب المذاكرة، ثم يبين للطالب أى الطرق أصلح فى توزيع الوقت على الدروس: هل الأصلح أن يجعل لكل مادة قسطاً صغيراً كل يوم، أو أن يجعل قسطاً أطول من ذلك بين حين وحين؛ وهو فى كل ذلك يستضىء بنور التجارب العلمية الثابتة.

وأسلوبه فى ذلك البيان أسلوب حى بديع، فهو يقول مثلاً، « ومن الخطر الكبير فى استعمال جدول المذاكرة الجمود. إن من الصعب أن نفرغ من عملنا فى كل مادة فى اللحظة التى يحل فيها وقت مادة أخرى، وقد يخطر لنا تخلصا من هذه الصعوبة أن نفرد كل ليلة فى نهاية المذاكرة حصة صغيرة، قل خمس عشرة أو عشرين دقيقة نجعلها كزمن احتياطى ننهى فيه أى شىء صغير قد نكون اضطررنا الى إغفاله فى أية حصة عادية من حصص المذاكرة. لكن هذه الخطة محفوفة بالمخاطر. » وهكذا يسير بالطالب حتى يستقر معه على خير الخطط وأوثقها.

ومن خير ما جاء فى هذا الفصل ما كتبه على التعب وماهيته فى المذاكرة، وطرق التغلب عليه أو تقليل ضرره.

وفى الفصل الثالث بحث طريف فى « تصريف الذاكرة » وطرق الحفظ، ويليه فى الفصل الرابع بحث آخر فى مثل طرافته فى « طبيعة الدراسة والتفكير » والفصل الخامس بيان « طريقة المذاكرة » وهو بحث عملى لا يستغنى عنه طالب، وقد أفاض فيه المؤلف إفاضة أحاطت بالموضوع من أطرافه

وأجد نفسى ضنيناً بأن أترك باباً من أبواب الكتاب لا أكتب عنه كلمة، بل أجد نفسى ميالاً الى أن أنقل الى القارىء منه نموذجاً لعله يعرف أى قول فيه وبأى أسلوب، غير أنى أعود الى نفسى فأذكر أننى إنما أنوه بكتاب رأيت فائدته، على صفحات مجلة قد لا تتسع لكل ما أريد ذكره من ذلك. ولكن لا بد أن أنوه بالفصل الثامن الذى يعالج فيه المؤلف « الاصغاء وأخذ المذكرات » فان هذا الفصل يسد حاجة ماسة عند طلبة المدارس ولا سيما طلبة الجامعة والمدارس العليا

وقد أضاف المعرب فصلاً بعد الفصل العاشر ألحقه بالفصل السابع وجعل موضوعه « كتب المراجعة فى اللغة العربية ». والحق أن هذا الفصل بحث عميق فى تراثنا اللغوى والعلمى، وفق فيه المعرب كل التوفيق، وأصاب فى إضافته كل الاصابة، وقد تناول فيه أمهات المراجع العربية بالوصف والتحليل فكان فصله دليلاً يرجع اليه من شاء المراجعة فى تلك الأمهات ليهتدى الى أيها شاء.

فأزف الى الأستاذ المعرب إعجابى الذى لا حد له بذلك الكتاب وأرجو أن ينتفع به أبناؤنا فى جهادهم العلمى، وأوصى من يطلع على كلمتى هذه من الاخوان أن يصفوه لمن حولهم من الأبناء، ففيه خير عون لهم ونعم الهادى ما؟

محمد فريد أبو حديد

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

للدكتور عبد الوهاب عزام

سمعت بسياحات الأستاذ محمد ثابت، فأعجبت به واغتبطت، أن كان من المصريين سيّاح يجوب الآفاق الى أقصى الأرض ليرى ويصف، ويقص على أمته من أنباء الأمم الأخرى. ولم يُتح لى أن أطلع على ما كتبه هذا الرحالة المصرى الا الأسبوع الماضى، اذ اطلعت على كتابه « جولة فى ربوع الشرق الأدنى » وقرأت ما كتبه عن العراق وإيران، فاذا الرحالة الهمام يعوزه العلم والتثبت فى مواضع كثيرة، وأنا أربأ به أن يكون كبعض سائحى الأمريكان؛ يقدم واحدهم الى القاهرة فيرى فى ساعات قليلة الاهرام والأزهر والقلعة ومسجد السلطان حسن، وخان الخليلى، ويرى فى الشوارع أناساً لا يعرف وجوههم ولا يفهم لغتهم، ولا يفقه عاداتهم ثم ينقلب الى أهله فيكتب أو يحدّث عما يضطرب فى رأسه من خوفو بانى الأزهر، وجوهر الصقلى مشيد الاهرام، والسلطان حسن مؤسس القاهرة وهلم جرّا!! ثم يتحدث عن أخلاق المصريين وتأثير تاريخهم وجوهم فى هذه الأخلاق

إنما يراد بالرحلات المشاهدة، والعلم عن عيان، وبحث بعض

الأمور فى مواطنها وإفادة علم جديد ، أو إبطال وهم قديم ، أو التثبت من رواية شائعة . وأما أن يطوف الانسان بالبلاد مسرعاً كراكب القطار يخيل اليه أن الأرض والجبال والشجر سائرة وأن السيارة التى تجرى الى جانبه واقفة فذلك قلب الحقائق أو تشويهها ، وتلك سبيل علمها شر ، وجهلها شر .

وأحسب رحالتنا اعتمد فى بعض ما كتب على كتاب من الأدلة الأوربية ، وبهذا يفسر كثير من الغلط والتحريف فى الأسماء ، وتأريخ الحادثات الاسلامية بالتاريخ الميلادى ، ونحن معشر المسلمين ، يكذب علينا كتاب أوربا ويفترون على ديننا وتاريخنا وأخلاقنا ، ويسيئون بنا الظن إساءة تقلب حسناتنا سيئات . فينبغى للسائح المسلم ألا يشاركهم فى ضلالاتهم ، فيكتب كل ما يسمع غير متثبت ، ولكن الرحالة المصرى المسلم لم يتوق الغلط والغلو مع نية حسنة وقصد سليم . وأصل البلية أن الأمم الأسلامية قد تقطعت بينها الأسباب ، وجهل بعضها بعضاً إلا ما يقرءون فى كتب الأوربيين ، فصار المصرى إذا رحل إلى العراق وإيران وتحدث عن أخلاق أهلها ومذاهبهم ، فانما يقص عن بلاد مجهولة لم يعرف ماضيها ولا حاضرها ، على قرب ما بين الأمم الاسلامية وكثرة ما بينها من أواصر ، وسهولة تفهم أحوالها ودرس تاريخها .

وفيما يلى نماذج من الأغلاط التى وقع فيها المؤلف :

من الغلط فى بديهيات التاريخ الاسلامى قوله إن الحسن بن على رضى الله عنه فرّ من العراق وقتل ، وأن الحسين قتلته جنود معاوية ، وقوله إن بلاد الفرس فتحها المسلمون فى ستين عاماً ، وجعلُه معاوية بن أبى سفيان فر من خالد بن الوليد فى قيادة الفتوح أيام عمر ، وقوله عن خلافة عثمان بن عفان « ثم جاء عثمان وقتل عاجلاً » كأنه لم يل الخلافة احدى عشرة سنة ، وقوله فى أثناء الكلام عن الحجاج : « وكان زياد فى البصرة » كأن زياداً والحجاج وليا العراق فى وقت واحد ، وبين موت زياد وولاية الحجاج زهاء عشرين سنة ، وقوله إن خالد بن الوليد صلى فى جامع همذان ، وقوله إن الفرس رأوا فى العباسيين أعداءهم فحاربوهم بالتشيع ، وهذه كما يرى القارئ أغلاط كنا نربأ بالأستاذ أن يقع فيها .

ومن التحريفات كتابته مدينة هيرات بالياء . ونصر الدين شاه بدل ناصر الدين بالألف . وجبل ألفند ، ودمافند . وكرفان سراى بالفاء بدل الواو فى الكلمات الثلاث . وقصر جولستان بالواو بعد الجيم . وهذا تحريف النقل من الكتابة الافرنجية . وأشنع من هذا أنه قال عن الايرانيين الذين سافروا معه الى مشهد إنهم كانوا يصيحون بين الحين والحين : « لاهم سل الى مهمد آلى مهماد » فهل عرف الرحالة المدقق أن هذه الكلمة التى سمعها هى « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » فان كان قد عرفها فلماذا لم يفسرها بالكتابة الصحيحة ، وإن كان لم يعرفها فلماذا لم يسأل عنها ؟

وأفظع من هذا كله قوله عن اخواننا شيعة ايران انهم يفضلون مشهداً على مكة . وكيف يعقل أن أمة مسلمة شديدة الغيرة على دينها تعتقد أن الحج الى مكة فرض وقاعدة من قواعد الاسلام — كيف يعقل أن هذه الأمة ترى زيارة مشهد أفضل من الحج الى مكة ؟ ربما بالغ عامة الايرانيين فى تعظيم مشهد وغيرها من المزارات الشريفة كما يبالغ عامة المصريين فى تعظيم مسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى وابراهيم الدسوقى ، ولكن عمل العامة لاتفسر به عقائد الأمة . وهذه كتب الشيعة بين أيدينا تنطق بخلاف مازعم الكاتب ، ولست أنسى غضب إخواننا شيعة العراق من قول بعض أساتذتنا : إن الشيعة الأمامية يتبرأون من الشيخين ، ولست أنسى عتب أحد علمائهم فى بغداد ، ولا عتب السيد الحجة محمد الحسين آل كاشف الغطاء حينما شرفنا بزيارته فى النجف فقال : لماذا تكتبون عنا ولاتقرأون كتبنا . لقد كان عتاب الأخ للأخ يود ألا يكون بينهما من الغلط ما يكدّر صفو الأخوّة الأسلامية ، وقد اعتذرنا للسيد يومئذ واعترفنا بتقصيرنا فى الاطلاع على كتب أئمة الشيعة . وأنا أعتذر هنا مرة أخرى عن الرحالة محمد ثابت واثقاً بحسن نيته ، وإن كان حسن النية لا يعد عذراً كافياً لمن لم يتحرّ الحق فى كلامه .

وفى الكتاب أغلاط أخرى ، أرجو أن يتوقى أمثالها فى رحلاته المقبلة .

وإننى لراج أن يتم التعارف بين الأمم الاسـلامية ، حتى لايكتب بعضها عن بعض إلا عن علم وروية ، وتثبت وإنصاف ، والله ولى التوفيق .

عبد الوهاب عزام

التجديد فى الأدب الانجليزى

الحديث

تأليف الأستاذ سلامه موسى

للأستاذ سلامه موسى فى خدمة الأدب العربى المعاصر همة تذكر فتشكر ، فهو ماينفك يتحف جمهور المثقفين بأبحاثه الطريفة على صفحات مجلته الغراء وغيرها من الصحف . ومن آثاره الأدبية الأخيرة كتابه هذا عن التجديد فى الأدب الانجليزى ويقع فى نحو مائة صفحة من القطع الكبير . شرح الأستاذ الحركة الفكرية فى العصر الفيكتورى ، ثم تكلم عن بعض المذاهب الأدبية فى ذلك العصر ، وذكر بعض الأجانب وأثرهم فى الأدب الانجليزى . كذلك ذكر اثنين غيرهما وجارى ماكس نورداو فى تسميتهما بالمنحطين وهما : والتر باتر وأوسكار وايلد ، ولخص مذهبهما فى أنه ينحصر فى الدعوة الى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف ،

ثم ترجم الأستاذ لبعض أعلام الأدب الانجليزى مثل كبلنج وهو فى رأيه شاعر الاستعمار ، وبرنارد شو وداروين وولز وجالزورثى وغيرهم ، ولقد تعرض لمذاهبهم وفلسفتهم فى دقة ومهارة . ولقد يبدو موضوع الكتاب غريباً عند من لم يكن له إلمام بالأدب الانجليزى ، والحقيقة أنه نافع لكل مثقف فهو يدرس حركة فكرية ، والحركات الفكرية وثيقة الصلة بالحياة ، ومن ثم فأنت تقرأ فى هذا الكتاب ملخص الحياة الاجتماعية فى انجلترا منذ عام ١٨٣٠ ، بيد أن الأستاذ المؤلف يغالى فى بعض آرائه مغالاة تنتهى بأحكام لا يمكننا أن نمر عليها دون أن نعارض الأستاذ فيها، وخصوصا لصدورها من أديب نابه كالأستاذ سلامه موسى . فهو ينعت العصر الفيكتورى ما بين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ م بأنه عصر خمول فى الأخلاق والأدب ، مع أنه من أرقى عصور الأدب الانجليزى وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة ، بلغت فيه المدرسة الرومانتيكية غاية نموها وتطورها ، وتعددت فيه مذاهب الكتاب واتسع الأدب فى نواح عديدة كالقصة والشعر والتاريخ وأدب المقالات وغيرها . يتجلى ذلك فى شعر الشعراء الذين افتتحوا هذا العهد ولم تمهلهم المنية كشلى وبيرون وفى شعر غيرهم ممن عاشوا بعدهم كوردزورث وتنسن ، كما يتجلى فى قصص سكوت العديدة وقصص شارلز دكنز العظيم وثكرى ومن ذهب مذهبهم أو خالفهم من القصصيين ، كما يتجلى فى كتابات ماكولى وكارليل ورسكن وغير هؤلاء وهؤلاء ممن ارتفعوا بآدابهم الى درجات المجد ، وما التجديد الذى يشير الأستاذ الى ظهوره فى عام ١٩٠٠ إلا ثمرة من ثمار العصر الفيكتورى الناهض ، وانك لتلمس أسبابه فى حركات ذلك العصر وترى هذه الأسباب واضحة فى كتاب الأستاذ نفسه مما لا يتفق مع وصفه هذا العصر بالجمود . لذلك لا أستطيع أن أشايع الأستاذ فى قوله إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والافتتاح » ، هذا مع احترامى لآراء الأستاذ الفاضل ومزيد إعجابى بطريقته فى عرض آرائه وثقافته الواسعة ، فهو كما يتجلى فى كتابه هذا وفى سواه من مؤلفاته العديدة يعتبر بحق مثالاً للأديب العصرى المثقف ؟

محمود الخفيف